محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثامن

تأليــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة محمد ﷺ إنسانية
لا تعرف عصبيات القومية والقرابة

هـذا وضع قـد يبدو غريبًـا لمن لـم يمعن النظـر في جو الأحـداث، ويتعرف إلى أسـبابها القريبة والبعيـدة في تأمل متعمـق، وفهـم متفقه فـي الدوافع التي أفضـت وتفضي إلى تلـك الأحداث ومثيلاتهـا حتى يتبين للناظـر حكمتها، وما تستهدفه من مقاصد وغايات.

فالنبـي ﷺ أمر بالإنذار العام في أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، إذ قيل له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.
(المدثر: ١، ٢)

وكان عمـه أبو طالـب أقرب النـاس إليـه، وألصقهم به، وأخلصهم له، فهو في بَدِيّ الرأي[1] أحق الناس أن يُدعى أول مـن يدعى إلى الهـدى والخير الذي جاء به ابـن أخيه وأحب النـاس إليه، وآثرهم عنده محمد ﷺ، وكان أبو طالب بذلك أحق من يبذل له محمد ﷺ النصيحة، لمواقفه الكريمة منه، منذ كان في كفالته وهو في مهاد طفولته، حتى بعثه الله رحمة للعالمين.

(١) بديّ الرأي: ظاهر الرأي. (المجلة).

ولكن الذي وقع كما تصوره هذه الرواية وغيرها من روايات الدعوة كان يُخفي وراءه حكمة التدبير في سياسة تبليغ الرسالة مدة الاستسرار بها، تلك الحكمة التي كانت تتطلب آثارها العملية تحقيق فكرة الاستخفاء بالدعوة ريثما تتكون لها لبنات قوية المزج، شديدة التماسك في جو بعيد عن إثارة المعوقات في طريق سير الرسالة، هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي يعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد، الذي يحمل لواء رسالة محمد ﷺ، ويخوض به لجج النضال فيما ينتظر هذه الرسالة من كفاح مرير.

وقد يغلط هنا بعض الكاتبين والباحثين، فيعمم الحكم بأن الذين دخلوا في دين الله، وصدقوا برسالة محمد ﷺ في مدة الاستسرار بها من السابقين الأولين كانوا جميعًا من الضعفاء والمستضعفين والعبيد والفقراء والبائسين، وهذا غلط يجب التنبيه عليه.

إن الذين دخلوا في الإسلام مدة استسرار الدعوة لم يكونوا من الضعفاء والعبيد والمحرومين، وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته، وابن سيد الناس في (العيون) والقسطلاني في (المواهب) أسماء وأنساب هؤلاء السابقين الأولين، حتى بلغوا عددًا كان يمكنهم به رد الاعتداء على أنفسهم، لو أنه كان قد أُذن لهم في ذلك، ولكن دعوة محمد ﷺ إلى رسالته

والإيمان بهديه لم تكن تقصد إلى إشعال نيران القتال في بيوتات قريش، التي دلف كثير من شبابها إلى الاستجابة لدعوة محمد ﷺ واتبعه على دينه، لأن هدف هذه الدعوة الهادية الكريمة كان فتح القلوب والعقول إليها وتقبلها.

ومن بداهات التاريخ أن عمومة النبي ﷺ، خاصة زعيمهم وكبير قومه أبا طالب كانوا في الذروة من قريش، مكانة واحترامًا، وتأسيًا بهم، وكانوا من العرب عامة في القمة سيادة وشرفًا وتمجدًا.

وقد جعلهم هذا الوضع القيادي أحرص العرب على التمسك بدين آبائهم، وتقاليدهم الجاهلية التي كانوا يقودون بها العرب بزمام الطواعية والاحترام، فهم بزعامتهم لقريش جيران البيت المعظم، وسدنة الكعبة المشرفة، يقومون على خدمة زائريها، وإكرام الوافدين عليها تنسكًا واتّجارًا، فحياتهم مرتبطة بهذا البيت، بيت أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وعيشهم موصول بمكانهم من هذا البيت المعظم.

وكانت قريش تعرف لنفسها هذه المكانة بين العرب، وكانت تتعظم بسكنى الحرم وتقول في تعظمها الذي لا يرده عليها أحد: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرم، وولاة البيت، وقطّان مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا

مثل منزلتنا، ولا تعرف العرب لأحد ما تعرفه لنا.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بذلك، فرأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة في سياسة السير بالدعوة وتبليغ الرسالة أن لا يهاجم هذا المجتمع الغارق في شروره ووثنيته، بمعالنته بضلاله، ودعوته إلى خلع الوثنية وقد سيطت بلحمهم ودمائهم(٢)، لا سيما أقرب الناس إليه عصبية، وأدناهم إلى الدفاع عنه حمية، وهم عمومته، وعلى رأسهم وفي طليعتهم عمه أبو طالب، زعيم قومه الذي حدب عليه، وكفله في طفولته ويتمه، ورعاه في شبابه وفتوته، وشد أزره في رجولته؛ لأن في مهاجمتهم تحريكًا لدوافع المقاومة للدعوة في نفوسهم، والدعوة لا تزال في أول خطواتها، خشية أن تتعثر في سيرتها، وأن تتكاءدها العقبات في طريقها، وهي لما تزل وليدة لما تثبت أقدامها، فآثر ﷺ الاستسرار بدعوته، وتبليغ رسالته، حرصا منه على أن يكون سيرها مطردا، وئيدًا، هادئًا، تمشي إلى القلوب والعقول بخطى ثابتة، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها، وظهورها في قوة ومنعة.

(٢) سيطت بلحمهم: أي خُلطت به. (المجلة).

نُجح خطة الاستسرار بالدعوة

وقد أفلحت هذه الخطة الحكيمة خطة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها، وظهرت آثارها فيما حققته من نجاح بعيد المدى، يتمثل في عدد وقوة إيمان من دلف إليها إيمانًا بها وتصديقًا بهديها، وكان من هؤلاء السابقين الأولين عدد من أبناء الأسر ذات الوضع الاجتماعي المرموق في قريش وغيرها، وتسامع العرب بها في مواسمهم ومحافلهم وأسواقهم، ومضاربهم ومنازلهم، فأقبل إلى مكة فريق منهم يتحسس أخبارها، ويتعرّف مكانها في خفية وحذر، حتى إذا بلغوا مأمنها في دارها ومعهدها دار الأرقم أسلموا لله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ واهتدوا بهديه، وصدقوا رسالته، وآمنوا بما جاء به من الحق.

قوة إيمان السابقين

وقد بلغت قوة الإيمان ببعض هؤلاء أن استولت عليهم حماسة الإيمان، فأبى إلا أن يعلن إسلامه على ملأ الشرك ومجتمع الكفر، دون أن يحسب أي حساب لما يناله من الأذى في سبيل إيمانه، وهذا كالذي صنعه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، فيما يرويه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ، قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم علم هذا الرجل

الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزوّدَ وحمَل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ، وهو لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه عليّ، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى كان اليوم الثالث، فعل مثل ذلك، فأقامه عليّ معه، ثم قال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، فقال: إنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئًا أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: (ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري) فقال: والذي نفسي بيده

لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا عليه، فأكب عليه العباس فأنقذه.

وفي رواية أخرجها أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) بسنده عن أبي حمزة، عن ابن عباس، قال أبو ذر: وحييت رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليكم يا رسول الله، فكنت أول من حيَّاه بتحية الإسلام، فقال: (وعليك السلام، من أنت؟) قلت: رجل من بني غفار، فعرض عليَّ الإسلام، فأسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال لي رسول الله ﷺ: (ارجع إلى قومك فأخبرهم، واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك) فقلت: والذي نفسي بيده لأصوتن بها بين ظهرانيهم، وفي رواية: فرماني الناس حتى كأني نُصُبٌ أحمر.(٣)

وكالذي صنعه عبد الله بن مسعود فيما يرويه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال:

(٣) النصب: حجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عليه فيحمرّ بالدم. (المجلة)

اجتمع يومًا أصحاب رسـول الله ﷺ ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقـال عبدالله بن مسـعود : أنا ، فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلًا له عشـيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني ، فإن الله سيمنعني ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش فـي أنديتها ، حتى قام عنـد المقام ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم رافعًا بها صوته

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾

(الرحمن : ١ ، ٢)

ثم اسـتقبلها يقرؤها ، فتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابـن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه يتلـو بعض ما جاء به محمد ﷺ ، فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شـاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فـي وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشـيناه عليـك ، فقال : ما كان أعـداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شـئتم لأغادينهم بمثلها غدًا ، قالوا : لا ، حَسْبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

إسلام حمزة بن عبد المطلب

إسـلام حمـزة كان من أعظم آثـار الاستسـرار بالدعوة ، ولو لم يكن من آثار الاستسـرار بالدعوة وسـداد حكمتها ، إلا أنها جذبت في أول خطواتها إلى سـاحة الإيمان برسالة

محمد ﷺ أشجع رجلين كانا في قريش، بهما أعز الله دينه، وأعلى كلمته، وأيد نبيه ﷺ، وقوى جانبه، لكفاها نجحًا وتوفيقًا وسدادًا.

فقد جذبت إلى ساحتها في السنة الثانية من بدء وحي الرسالة كما قطع الحافظ ابن حجر به في (الإصابة) وصدَّر أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وتبعهما القسطلاني في (المواهب) أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، أسد الله، وأسد رسوله، سيد الشهداء، مرعبل كتائب الشرك والوثنية في بدر(٤)، ورافع راية الإسلام والتوحيد، الفارس المُعلم أبا عمارة، حمزة بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاع، وابن خالته نسبًا ومنزلة، فأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، ابنة عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف، أم سيد الخلق، محمد ﷺ.

وكان سبب إسلامه أن أخته صفية بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام، ومعها جارية لعبد الله بن جدعان أخبرتاه، وهو عائد من قنصه وصيده أن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمدًا ﷺ وبالغ في تنقيصه، وهو جالس عند الصفا، فلم يكلمه محمد ﷺ، ولم يرد عليه سفاهته، فاحتمل الغضب والحمية

(٤) رَعْبَلَ الشيء: قطّعه قطعا صغارا. (المجلة)

حمـزة رضي الله عنـه، ولِمَـا أراد الله به من الكرامـة، ولِمَا أراد لدينـه ونبيه من الإعزاز، فخرج يشـتد مُعِدًا لأبي جهل الإيقاع به، فلما دخل المسجد لم يكلم أحدًا على غير دأبه وعادته، ونظر إلى أبي جهل جالسًا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسـه ضربه بقوسه، فشجه شجة منكرة، وقال له: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول فَرُدَّ عليّ إن اسـتطعت، فحمي لأبي جهل رجال مـن قومه بني مخزوم، لينصـروه، فقال لهم أبـو جهل: دعوا أبا عمـارة، فإني قد سببتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا.

ومضى حمزة رضي الله عنه في طريق الإيمان، والذود عن الدعـوة حتى بلغ مقامًا لم يبلغه غيره من المسـلمين، فهو سـيد الشهداء بشهادة سيد الخلق ﷺ، وهو أسد الله وأسد رسوله ﷺ، كان إسلامه عزًا للمسلمين، ومنعة وقوة للنبي ﷺ، أُخـذت به قريـش فأصابها المقيم المقعد، وشَـرِقَت بإسـلامه فكان شـجًا في حلاقيمها، وأذل كبرياءها، وقتل كبراءهـا، وظهـرت بـه الدعوة بعـد اسـتخفائها وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد اسـتتارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سـمع طغاة الشـرك، فأراهم حقارة عقولهم في حقارة معبوداتهم، وأراهم عزة الحق وانتصاره.

إسلام عمر بن الخطاب:

ثم جذبت سياسة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها وبدء أمرها ثاني العظيمين، فاروق الإسلام، وعز المسلمين، وعبقري الدنيا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد اختلفت الروايات في سبب إسلامه اختلافًا عريض الجوانب، وواسع المنتجع، بيد أنها كلها تتفق على أن بداية حركة إسلامه كانت عزيمة جاهلية مظلمة، خرج فيها شاهرًا سيفه ليقتل رسالة الحق والهدى، رسالة الإسلام، ويئد الدعوة إلى الله، دعوة رسالة محمد ﷺ بقتل محمد ﷺ.

كما تتفق تلك الروايات على أن نهاية حركته المظلمة كانت نورًا وضياء، وهدى ورحمة، كانت آية من آيات الغيب المحجب، الذي تعجز العقول والقوى والقُدَر عن استشفاف حقائقه، كانت صورة من الإيمان المشرق المتوثب حماسة للحق، وقوة للإيمان والهدى.

فبداية عمر رضي الله عنه مع الإسلام ورسالته التي انتهى بها القدر الحكيم عزًا للإسلام والمسلمين، وذلا وخزيًا للشرك والمشركين كانت حمية جاهلية، وعزيمة جاحدة لمنطق العقل، مغرورة بتعبدها للوثنية، تناصر الشيطان، وتكفر بالرحمن، وكان السيف فيها هو صاحب الكلمة الفاصلة الناطق بحجتها، غاب فيها العقل عن منصته في الحكم على

المدارك، وأظلم فيها القلب، فلم يشرق في أفقه شعاع من نور الحق.

أما نهاية عمر في حركته إلى دار الإسلام ومعهده، التي كتب الله سطورها في سجل الخلود بمداد من النور، فكانت هدى ورحمة، وعزًا ونصرًا، وفتحًا مبينًا، وإيمانًا راسخًا، وصوتًا بشعار الإسلام وعنوانه جهيرًا، فما أبعد ما بين البداية والنهاية، ولكنها المقادير تظهرها العناية.

وهكذا انخرط عمر رضي الله عنه في سلك المؤمنين أقوى ما كان مؤمن بدعوة، اعتنق عقيدتها وآمن بمبادئها وشرعتها، فكان إيمانه قوة للإسلام وعزًا للمسلمين.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، وكان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا.

وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر رضي الله عنه نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر رضي الله عنه.

كان إسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام، وكان رسول الله ﷺ يعرف شجاعة عمر، وشهامة رجولته، ويعرف عبقريته في سواء تفكيره واستقامة طبعه،

وجرأتـه علـى الجهر بمـا يعتقد، ووقوفـه مع رأيـه وكلمته، فـكان يحـب أن يهديـه الله إلـى الإسـلام، ليكون لـه ناصرًا، وتكـون شـجاعته قوة لهذا الدين الحق الـذي بعث الله به نبيه رحمـة للعالمين، فكان يدعو الله تعالى أن يهديه للإيمان، وأن يجعله درعًا من أدراع هذا الدين، يدرأ به عن المستضعفين ذل الاستضعاف وأذى المشركين، فيقول فيما أخرجه ابن ماجه، ورواه الحاكـم وابن حبان عن عائشـة وابن عباس: (اللهم أعز الإسلام أو أيد الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة).

ضعف حديث ذكر أبي جهل في إعزاز الإسلام

وهـذا الحديث يوهي ما أخرجـه الترمذي والإمام أحمد من أن دعاء النبي ﷺ كان بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب).

وذلك الإيهاء من وجوه:

الوجه الأول:

أن ذكر أبي جهل في هذا المقام بأقبح كنية له في الإسلام، نبذه بها المسلمون لكثرة ما كانوا يلقون من سفاهته وأذيته، ولبشـاعة ما كان ينالهم منه من سـوء وشـر، ولسـوء ما كان يتناول به رسـول الله ﷺ من بـذيء القول، وفجور الإيذاء- لا يتواءم مع المناسـبة في مقام هـذا الدعاء الأكرم الذي قصد به

النبي ﷺ الضراعة إلى الله تعالى أن يختار لإعزاز دينه رجلا يحبه، ويعلم فيه أنه خُلق على الاستعداد للتحلي بطهارة الإسلام ومكارمه وعزته.

هذا التشقيق لم يعرف في أساليب أفصح الفصحاء ﷺ:

وحديث الترمذي الذي يجمع بين الرجلين في الدعاء بأن يعز الله بأحدهما الإسلام مضطرب الألفاظ في الروايات، فقد رواه صاحب الصفوة بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بعمرو أي أبي جهل أو عمر) ورواه ابن إسحاق عن خباب بن الأرتّ بلفظ: (اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب) ورواه ابن سيد الناس في (العيون) بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب) وهذا الاضطراب في ألفاظ الحديث يضعف روايته، ويوهي نصه.

الوجه الثاني:

أن أبا جهل كان منذ جاء الإسلام لَعِينَ الله تعالى وملائكته، ولَعِينَ رسول الله ﷺ ولعين المسلمين، وعدوهم الألد، فقد عرف بأشد البغض، وأقبح الشنآن لرسول الله ﷺ، وكان مصداق قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

(الفرقان: ٣١)

كما فسرها به ابن عباس، فيما أخرجه عنه ابن مردويه.

وأبو جهل حري بهذا، فقد كان دائب مواقف لؤم الطبع، وخسة الفجور، وخبث الإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه، وهو صاحب الطعنة الفاجرة الخبيثة التي طعن بها أم عمار بن ياسر، السيدة سمية أول شهيدة في الإسلام، وهو صاحب اليد الجبانة التي أطارت حلق أسماء بنت أبي بكر الصديق من أذنها، إذ تشاجع وهو يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فصفعها ليشفي غلّ الخسة والهمة الساقطة في نفسه ونحيزته.

وهذه أفعال لا تقع من رجل عربي، له من مروءة العرب أدنى حظ، وأحط نصيب، ولا تقع من رجل يعرف لرجولته حقها عليه مهما بلغ به حقد الكفر، وخبث الجحود، فلا يتصور أن النبي ﷺ يدعو ربه متضرعًا إليه أن يؤيد دينه، دين العزة والكرامة والمروءة برجل يفقد العزة والكرامة والمروءة، ولا يتصور أن محمدًا ﷺ المختار لتربية الإنسانية بأدب القرآن العظيم أن يدعو ربه أن يؤيد رسالته الهادية الراشدة بألد أعدائها، وأخبث شريريهم، وأفسد مفسديهم، وأحطّ من مشى على أرض الله في دنيا الناس.

الوجه الثالث:

أن أبا جهل كان مغموز الرجولة بين قومه، معروفًا في الجاهلية والإسلام بأحط وأقذر ما يتصف به إنسان، ولا يتصور

أن النبي ﷺ يضرع إلى ربه داعيًا أن يعز الله الإسلام دين العزة والكرامة بهذا المغموز في رجولته بغميزة لا يبرأ من عارها مطعون بها .

الوجه الرابع:

إن جعل هذا الخبيث اللعين في ميزان مع عمر بن الخطاب ، وهو من هو في جاهليته رجولة وفتوة وعزة ، كان رجلا مشهور الجد ، كريم الرجولة ، يتفتى ويتكارم ، لم تعرف عنه غميزة تمس شخصيته في أخلاقه الإنسانية ، ولم يعرف مع ما كان عليه في جاهليته التي لم تطل كثيرًا مع الإسلام من الشدة والعنف في عداوة الإسلام ونبيه ﷺ والمؤمنين أنه آذى رسول الله ﷺ بخسائس من الإيذاء ، كما عرف من هذا الخبيث الغميز أبي جهل من خسائس الإيذاء- لا يستقيم مع موازين الرجال ، والتطلع إليهم ليسهموا في معالي أمور الحياة وقيادتها ، فلا يتصور أن يضع رسول الله ﷺ وهو المسدد برعاية الله وتوفيقه العليم بالرجال وموازينهم ، عمر بن الخطاب في كفة ميزان مع هذا الخبيث أبي جهل ، وعمر بن الخطاب في جاهليته وشركه كان شريف المكانة ، مقدر العقل واستقامة الخلق بين قومه ، فكان سفير قريش ، ومنافرها ومفاخرها في جاهليتها .

وإذا كان قصدُ النبي ﷺ بهذا الدعاء مجرد إعزاز الإسلام وتأييده ، ولم ينظر إلى خصوص شخصية من يؤيد به الدين ،

فلماذا اقتصر رسـول الله ﷺ في دعائه على أحد الرجلين غير معيـن ؟ وهـو ﷺ بمقتضى ظاهـر الرواية ما كان يعلم سـاعة الدعـاء أي الرجليـن كان أحـب إلى الله أن يُعز بـه دينه ويؤيد به الإِسـلام، ولا أيهمـا يكون إسـلامه عزًا لهـذا الدين، فهل كان يضيق الإِسـلام بإِسـلام الرجليـن وإعزازهمـا وتأييدهما له، والمسـألة كانت مسـألة رغبة من النبي ﷺ في أن يعز الله الدعوة ليقوى جانبها وتخرج من تخفيها، فهلا كانت الدعوة عامـة للرجلين، لإِعـزاز الدين بهما، وهذا بلا شـك -لو صح وضـع الرجليـن في ميزان- أجـدى وأنفع لتحقيـق الرغبة في إعزاز الإِسلام بهما.

إن أسـلوب الدعـوة الوارد في الروايتيـن (فلان أو فلان)- يقتضـي أن النبي ﷺ كان يشـعر بأن أحـد الرجلين فقط غير معيّـن هو الذي يتحقق به إعزاز الدين وتأييده، وأن الآخر غير معيّـن لا أمـل فيه لإِعـزاز الدين، ولا رجاء منه فـي تأييده، فلا يجتمـع الرجلان في إعزاز الدين، ومن ثم لم تجمعهما الدعوة ليكـون الإِعـزاز والتأييد بهمـا مجتمعين، فمن أيـن جاء هذا الشـعور الـذي يقتضيه أسـلوب الرواية؟ أمن طريـق الوحي؟ فيكـون النبـي ﷺ قـد تلقى عـن الله ذلك، أم هـو اجتهاد من رسول الله ﷺ؟

أما الوحي فلم يُعلم لنا شـأنه في هـذا الحادث بخصوصه،

وأما اجتهاد رسول الله ﷺ فلا يدرى حكمة تخصيص واحد من الرجلين بالدعاء غير معين وكان إسلامهما معًا- لو كان ممكنًا تساويهما- أقوى إعزازًا وتأييدًا للإسلام والمسلمين.

فلو كان لأبي جهل منفذ إلى رجاء الخير فيه أو منه لكانت دعوة النبي ﷺ للرجلين معًا أن يعز الله بهما معًا الإسلام، لا لأحدهما غير معين.

الوجه الخامس:

أن التخصيص بالنص على انفراد عمر بن الخطاب بدعوة النبي ﷺ أن يعز به خاصة الإسلام، في حديث عائشة الذي أخرجه الحاكم وصححه، وأقر تصحيحه الذهبي، وصرح بصحته الزرقاني في شرح المواهب، وفي حديث ابن عباس عند البزار وابن ماجه وابن حبان، ونصه: (اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة) قاطع بأن أبا جهل لم يكن قط أهلا لرجاوة النبي ﷺ، ولا كان أهلا أن يدخل في رغبة إعزاز الدين كما أقحمته الروايات التي تجمع بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وذكر السيوطي في الدرجة الثالثة ص٢٠١، ٢٠٢ عن عبد الله بن مسعود كما أخرجه الطبراني وابن مردويه قال ابن مسعود: فضل عمر رضي الله عنه الناسَ بأربع: وفيه: دعوة نبي الله ﷺ: (اللهم أيد الإسلام بعمر).

والروايات المضطربة في نصوصها، المختلفة في ألفاظها

وعباراتها التي تذكر الرجلين في دعوة النبي ﷺ عامة مبهمة، ورواية تخصيص عمر بن الخطاب بالذكر منفردًا صريحة النص على تخصيصه، مفسرة واضحة، ولا شك أن الأخذ بالواضح المفسر المخصص لمطلوبه أحق بالقبول.

وقد حاول بعض الأئمة أن يوفق بين روايات ذكر الرجلين في الدعوة، ورواية تخصيص عمر رضي الله عنه بالذكر منفردًا في طلب إعزاز الدين به خاصة، فقال ابن عساكر إنه ﷺ دعا بالأول أي الدعاء الذي ذُكر فيه الرجلان أولا، فلما أوحى إليه أن أبا جهل لن يسلم خص عمر بدعائه.

وهذا التوفيق متوقف على العلم بأن الدعاء وقع من النبي ﷺ مرتين كانت أولاهما بذكر الرجلين، قبل أن يعلم سيدنا رسول الله ﷺ بحال أبي جهل في كفره المقيم، وكانت ثانيتهما بتخصيص عمر بعد أن علم رسول الله ﷺ من طريق الوحي أن أبا جهل مطبوع على قلبه فلن يسلم أبدًا، وأنى لنا بهذا العلم الذي يفيد وقوع الدعاء مرتين مرتبتين، أولاهما جمعت الرجلين لعدم علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل وختْم الله على قلبه فلا يتوقع منه الإسلام فضلا عن إعزازه به، وثانيتهما خصصت عمر بالذكر بعد أن علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل من طريق الوحي، ولو كان هذا العلم موجودًا لذكره العلماء وذكروا سنده.

الوجه السادس:

أن أبا جهل كان عنيد الكفر، كفور العناد، حقود الجحود، خبيث الطبع، غليظ الكبد، فظًا جواظًا حسودًا حانقًا على الإسلام والمسلمين، مغيظ النفس، شانئًا للنبي ﷺ وآل بيته من بني عبد مناف منذ اختارهم الله تعالى دوحة لانبثاق محمد ﷺ من نبعتهم، واصطفاه الله لرسالته، فشرفهم به شرفًا لا يلحق في الآخرين، ولم يسبق في الأولين.

وقد ثبت أن أبا جهل كان يقول عن النبي ﷺ كما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره: والله إني لأعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعًا؟ وفي هذا الجحود المغيظ، والحسد الكفور نزل قول الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣)

ويروي ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية فعلوا مثل

ما فعلوا في الليلة قبلها، ثم عادوا لليلة الثالثة، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة: والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد منها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج الأخنس من عند أبي سفيان حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا بالركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه.

هذه القصة تبين خبيء ما يكنه قلب هذا الخبيث الكفور من الحقد العنيد، المنحدر من مواريث العصبية الجاهلية، التي لا تعرف للحق وزنًا، ولا تعرف للخير والعدل طريقًا، فصاحباه أبو سفيان والأخنس، على كفرهما وشركهما لم يبدُ منهما شيء مثل الذي بدا من أحقاد هذا الطاغية الخبيث.

وقد صدق الله تعالى إذ يقول فيه وفي أمثاله من المكذبين حقدًا وعنادًا:

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

(الحجر : ١٢، ١٣)

قال الزمخشري في تفسيرها : على معنى أنه يلقيه -أي الذكر- في قلوبهم مكذبا مستهزأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها، قلت : كذلك أنزلناها باللئام، تعني مثل هذا الإنزال أنزلناها بهم مردودة غير مقضية. ا هـ.

وقال ابن المنير في (الإنصاف) : والمراد -والله أعلم- إقامة الحجة على المكذبين، بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين فكذب به هؤلاء، وصدّق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين.

ولذلك عقبه الله تعالى بقوله :

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾

(الحجر : ١٤، ١٥)

أي هؤلاء فهموا القرآن، وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة. اهـ.

ومثل هذه الآيات أخوات لها كقوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾

(الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١)

وكقوله عز شأنه:

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (الأنعام: ٧)

ومن أدق ما يلفت النظر في هذه الآيات العَنْوَنةُ لهؤلاء المعاندين بوصف (الإجرام) ليُفهم أن المقصود الأعظم بهذه المثابة إنما هم الزعماء الذين يتبعهم الناعقون من الرعاع الذين لا تدبر لهم لما يسمعون، وهؤلاء الزعماء هم الذين يقودون المقاومة للحق؛ لأنه إذا استقر وفهمته العقول هَدَمَ بنيان حياتهم الزائفة الحاقدة، من أمثال الخبيث أبي جهل وضربائه الذين يردون الحق وهم يعلمون أنه الحق عنادًا وجحودًا، يحملهم عليه الحقد الكفور.

الوجه السابع:

إن روايات أحاديث انفراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدعوة النبي ﷺ أن يعز به الإسلام -وردت مضبوطة العبارة موحدة اللفظ، في صيغة واحدة، لم يدخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارة، وهذا دليل على صحتها وثبوتها.

أما روايات الأحاديث التي جاء فيها ذكر الرجلين منسوبًا إلى دعوة النبي ﷺ وضراعته إلى ربه أن يعز الإسلام بأحدهما، بأي اسم أو أي وصف- فقد دخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارات والأوصاف كما نبهنا عليه.

فحديث الترمذي وهو أقواها رواية، روي بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر)، وروي بلفظ (اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب). قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وفي إسناده خارجة بن عبد الله صدوق، فيه مقال، وكفى بذلك إيهاءً له.

وحديث خباب بن الأرت روي فيما أخرجه الدارقطني بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بعمر، أو بعمرو بن هشام)، وروي فيما أخرجه البزار بلفظ: (اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب).

فإدخال أبي جهل في دعوة النبي ﷺ لإعزاز الإسلام، تَقَحَّمُ

ساق إليه الوهم والتخيل، ولعل هذا الوهم جاء من قبل بعض المستضعفين الذين اشتد عليهم الأذى، ولم تقوَ قلوبهم على احتمال الصبر، فحدثوا أنفسهم بأمنية أن يهدي الله رجلا قويا للدخول في الإسلام، فيعتزون به، وتوهم من توهم أن قسوة أبي جهل وعتوه وجبريته على الضعفاء والمستضعفين، تكون لهم قوة وعزًا، لو أن الله هداه إلى الإيمان برسالة الإسلام، ولم يعلموا من أمر أبي جهل ما كان يستبطنه من سوء سريرة وغميزة.

وكانت شدة أبي جهل على المسلمين مستفيضة الوقائع، خبيثة دنيئة، كصنيعه بأسماء بنت أبي بكر وهي صبية لم تتجاوز سن الطفولة، وقد جاء هذا الخبيث يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فأخبرته صادقة، أنها لا تعرف أين أبوها، فرفع الجبان يد الفُسولة والوضاعة النفسية[٥] وصفع بها أبو جهل الصبية صفعة أطارت شنفها من أذنها[٦]، وكذلك الجبناء إذا خلوا بغير كفء يتشاجعون.

وكصنيع غميز الرجولة الخبيث في طعنه سمية أم عمار بن ياسر، وهي تعذب لتكفر بالإسلام طعنة لا يرفع يده بها إلا كل جبان فقد رجولته، واستعاضها حقدًا على الحياة، وهو أعجز

(٥) الفسولة: النذالة والوضاعة. (المجلة)

(٦) الشنف حلق يعلق في أعلى الأذن. (المجلة)

من أن يجد لحقده متصرفًا إلا أجسـام الضعفاء يمزقها بسياط الحقد اللئيم.

أمـا عمر بـن الخطاب رضـي الله عنه الذي وضعتـه الرواية الباطلـة في كفة ميزان مع الخبيث الرعديد أبي جهل فقد كان في جاهليته شديدًا على الإسلام والمسلمين، وعلى النبي ﷺ، وحسْـبُ شدته الجاهلية مَقْتًا أنه خرج بسيفه ليقتل رسول الله ﷺ، فرده القدر، وصنع منه رجل الدنيا إيمانًا وعدلا وسياسة وقوة في الحق.

وعمر يصف شدته على النبي ﷺ فيقول في إجمال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ. وتصف شدة عمر وقسوته على المسـلمين أم عبد الله بنت أبي حثمـة فيما يحكيه عنها ابن إسـحاق قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشـة إذ أقبل عمـر بن الخطـاب حتى وقف علـيّ، وهو على شـركه، وكنا نلقـى منه البلاء، أذى لنا وشـدة علينا، فقال: إنه للانطلاق يا أم عبـد الله؟ فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجًا، فقال: صحبكم الله!

قالت أم عبد الله: ورأيت له رقة، لم أكن أراها، ثم انصرف، وقـد أحزنه خروجنا، فلما جاء عامر بن ربيعة -زوجها- قالت له: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا؟ قال: أطمعت فى إسـلامه؟ قالت: نعم، قال عامر: فلا يسـلم الذي

رأيت حتى يسـلم حمار الخطاب، يأسًا منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام.

هذه غلظة عمر بن الخطاب وقسوته في جاهليته يصفها هو فيجمل، ويصفها من قاسى آثارها وعانى منها حتى يئس من صاحبها أن تدخل الهداية قلبه فيسلم، فأين تقع هذه القسوة الجاهلية في عمر بن الخطاب -وهي غلظة رجولة تدفع إليها حمية جاهلية من رجل مثل -عمر غلظةُ الجبان الحقود، يدفع إليها الحسد الموروث من إنسان فقد حياءه، فلا يستعرض قوته ويأسه إلا فى صفع صبية لا تملك يومها الدفاع عن نفسها.

بل أين تقع شدة عمر وقسوته على أهل الإسلام في جاهليته، تلك الشدة التى خرجت من نفس ترق وتلين، حتى تصل إلى مرتبة الحزن لمفارقة من صبَّت عليهم قسوتها، فرارًا بدينهم، وعقيدتهم في أرض الله حتى يجعل الله لهم فرجًا ومخرجًا، فيقول لهم من قسا عليهم بالأمس: صحبكم الله، من قسوة رعديد، لا يملك من دواعي المروءة والترفع عن مخازي الرذائل، فيطعن امرأة ضعيفة، وهي تئن تحت سياط العذاب طعنة لا تقع من إنسان فيه ذرة من معالم الرجولة، بله المروءة العربية، ولكن إذا ذهبت الرجولة مع الحياء لم يبق لشاكلها إلا عصارة الحقد الأسود، تفيض به نفسه، فيصبه على من لا يملك أن يدفع عن نفسه.

الوجه الثامن:

ومِـن أقطع ما يردُّ حديث ذكر الرجلين في الدعوة النبوية، ويؤكـد الوهم في روايته، سـواء جـاء ذكرهما باسـميهما أو وصفيهمـا مـارواه البخـاري فـي أبـواب الطهـارة، والصلاة، والجزيـة، والجهـاد، والمغازي عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنـه، قال: كان عليه الصلاة والسـلام يصلي عند الكعبة، أو البيـت، وجمْعٌ من قريش في مجالسـهم، إذ قال قائل منهم هـو اللعيـن أبو جهل، كما جاء مصرحًا به في رواية مسـلم ألا تنظـرون إلـى هـذا المرائي؟ أيكـم يقوم إلى جـزور آل فلان، فيعمـد إلى فرثها ودمها وسـلاها، فيجيء به ثـم يمهله حتى إذا سـجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشـقاهم هو عقبة بن أبي معيط قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وإنما كان أشـقاهم مـع أن فيهم أبا جهل وهو أشـد كفرًا منـه، وإيذاء للمصطفى ﷺ لاشـتراكهم في الكفر والرضا، وانفراد عقبة بالمباشرة، ولذا قتلوا في الحرب، وقتل عقبة صبرًا.

وحكى ابن التين عن الداودي أن الذي انبعث هو أبو جهل، فإن صح احتمل أن عقبة لما انبعث حمل أبا جهل شـدةُ كفره فانبعث على أثـره حتى لا ينفرد بفخر الجريمة الفاجرة، عند أكابر مجرميها عقبة، فأراد اللعين أبو جهل أن يكون شـريكه فى إثمها وفجورها.

فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة، وهي يومئذ جويرية صغيرة، فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه وأقبلت تسبهم، وتشتمهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: (اللهم عليك بقريش) وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم سمّى وعيّن وفصّل، فقال: (اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد). قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم أي أكثرهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: (وأتبع أصحاب القليب لعنة) قال الحافظ ابن حجر: وهذا يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه عَلم عظيم من أعلام النبوة.

هذا الحديث الذي يرويه رواة أصح الحديث الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما من الأئمة، فيه تصريح بأن الخبيث أبا جهل رأى رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة، وملأُ قريش زعماء الكفر وطغاة الشرك جلوسٌ حول البيت، فتحرَّك في قلب هذا الكفّار العنيد حقد الجاهلية الموروث الجحود، وفجوره الكنود، فأغرى شياطين الوثنية بالنبي ﷺ، وتناوله بالسب والشتم الخبيث، وطلب إلى هؤلاء الأخابث أن يمدوا أيديهم بالسوء

بعد أن مدّوا ألسنتهم بالسفه والبذاء، لينالوا من رسول الله ﷺ، وطلب إليهم أن يأتوا بأقذار جزور فيطرحها على المصطفى ﷺ وهو ساجد، فانبعث إلى لعنة الله وسخطه أشقاهم عقبةُ بن أبي معيط ليباشر الجريمة الفاجرة، وكأنما حسده اللعين أبو جهل على انفراده بهذا الإثم الفاجر، فانبعث يلحق به، وجاءا معًا بأقذار الجزور وطرحاها بين كتفي رسول الله ﷺ وهو ساجد، فتضاحك ملأ الفجور استهزاء وسخرية حتى مال بعضهم على بعض تماجنًا وفرحًا بما رأوا من سوء وفجور.

ولم يجرؤ أحد أن يلقي القذر عن كتفي رسول الله ﷺ، حتى أتى الخبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فجاءت تسعى وهي طفلة صغيرة، فألقت القذر عن كتفي أبيها سيد الخلق ﷺ وهو ثابت في سجوده، لم يرفع رأسه تنزهًا أن تكون حركة من حركات تعبده لله تعالى في ظل هذا الفجور والإثم، وتطهيرًا لصلاته أن تقع حركة من حركاتها على غير طهر وتطهر، ثم التفتت إليهم فاطمة تسبهم وتلعنهم، فما جرأ خبيث منهم أن يرد عليها.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته دعا على أهل الفجور، فعم وأجمل، فقال: (اللهم عليك بقريش) وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم خصّ وفصّل وعيَّن، وسمى من المجرمين أعتاهم، وأشقاهم، فقال: (اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن

هشـام) وفلان، وفلان، حتى ذكر منهم سبعة، كانوا هم أكابر مجرميهـا، ثم قـال النبي ﷺ إعجازًا، وإخبـارًا عن الغيب بما هـو كائن فكان كما قال: (وأتبع أصحاب القليب لعنة) وهذا كمـا يقول ابـن حجر: عَلَم من أعظم أعـلام النبوة، لأن هؤلاء الفجار قُتلوا جميعًا يوم بدر، وسـحبوا إلى القليب قليب بدر، وقتل أشقاهم عقبة بن أبي معيط صبرًا، وقتل عمارة بن الوليد بالحبشة شر قتلة.

فكيف يمكن أن يدعو النبي ﷺ ربه أن يعز الإسلام ويؤيده بأحـد رجلين، فيهما هـذا الخبيث الكفار العنيـد، والمؤذي لرسـول الله ﷺ هـذا الإيـذاء الفاجـر الذي دفع بـه ﷺ وهو الحليـم الصفـوح أن يدعو عليه بهذا الدعـاء، الذي خصه فيه بعد التعميم، وعينه باسـمه وكنيته فيمن ذكرهم بأسـمائهم من الجارمين، بل إنه أخبره مواجهة أنه من المذبوحين؟

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فأخذهم بأيدي المؤمنين في أول وقعة من وقائع نصر الإسلام والمسـلمين، وقعة بدر الكبـرى، التي جـاءوا إليهـا يقودهم اللعين أبـو جهل، وقد انتفخ سَـحْره بأوًا وكبرياء حتى قتله أضعف المسلمين بدنًا الغلام المعلَّم(٧)، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد فرح بقتله النبي ﷺ.

---

(٧) البأو: الزهو والافتخار. (المجلة)

أخرج ابن عبد البر بسنده في الاستيعاب عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ يوم بدر، فقلت: إني قتلت أبا جهل، قال: (آللّٰه الذي لا إله غيره لأنت قتلته؟) قلت: نعم، فاستخفه الفرح، ثم قال: (انطلق فأرنيه) قال: فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه فقال: (الحمد لله الذي أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة، جروه إلى القليب).

الوجه التاسع:

وأخرج البخاري عن عمرو بن العاص قال: ما رأيت قريشًا أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغروا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبُع رسول الله ﷺ وهو يقول: (أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته مرّ بهم، فقال: (والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح) فقال أبو جهل: يا محمد، ما كنت جهولًا، فقال النبي ﷺ: (وأنت منهم).

وأخرج البخاري هذا الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمرو وقد سأله عروة بن الزبير عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ فذكر نحوه، فهذا الحديث الذي يرويه البخاري مرة عن عمرو بن العاص، ومرة أخرى عن ابنه عبد الله بن

عمـرو صريـح في أن مـلأ قريش، وفيهـم غميـز الرجولة أبو جهل، أغروا أشقاهم عقبة بن أبي معيط بقتل النبي ﷺ، كما جاء صريحًا في قول عمرو بن العاص: (ما رأيت قريشًـا أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغروا به).

وفعـل اللعين عقبـة بن أبي معيط فعلتـه الجارمة، وقام إلى النبي ﷺ وخنقه خنقًا شـديدًا، كاد يقلب النهار ليلًا، والنور ظلامًا، لولا أن أسرع الله تعالى بأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغـه الخبر الفظيع المفظع، فجاء يشـتد وهو يبكي، فدفع عن رسـول الله ﷺ، واشـتبك مع ملأ الكفـر والطغيان، فقال لـه النبـي ﷺ: (دعهم يا أبـا بكر، فوالذي نفسـي بيده، إني بُعثت إليهم بالذبح، فأخذ ملأ قريش عن أنفسـهم، وأصابهم ذهول واجم، ذهب بعقولهم لما سـمعوا ما توعدهم به رسول الله ﷺ، وكان أشـدهم فزعًـا وأكثرهم رعبًـا رعديدهم غميز الرجولة أبا جهل، لتيقنهم من صدق محمد ﷺ، وأنه لا يقول قـولًا إلا وقـع تصديقه كما قـال وراح الجبن والخور، وسـوء الانميـاع يملي علـى الرعديـد الفاجر كلمات الذلـة، يتوجه بهـا إلى محمد ﷺ، يرفـؤه، ويتملقه، ليخفف من إنذاره لهم وتوعده إياهم، بيوم يلقون فيه التي لا شوى لها، فيقول غميز الرجولة وهو ينتفض رهبة من هول ما سمع وتمثل: يا محمد، ما كنت جهولًا، ويرد عليه محمد ﷺ في يقين شـهود الغيب

وكأنه واقع بهم، فيقول له: (أنت منهم) أي من المذبوحين بكفرهم وفجورهم، والله أعلم بما كان من هذا المتشاجع الكفور ساعة أن صك أذنيه صوت الوعيد الذي خصه به الصادق المصدوق، محمد الأمين ﷺ بقوله: (أنت منهم).

فكيف يصح في ميزان عقل مستقيم، أو في ميزان الطبائع البشرية، بله ميزان العدل والحق أن ينسب إلى النبي ﷺ أن يدعو ربه أن يعزّ دينه ويؤيده بأحد رجلين عُيّنا باسميهما ووصفيهما، وأحدهما أخبث إنسان عرفته الحياة، وأسقط بشر في ميزان الرجولة وحمية الرجال، سداه ولحمته لؤم ومكر وكيد لدعوة الإسلام، والنبي ﷺ توعده بوعيد يقضي على احتمال إيمانه في مستقبل حياته؟

هذا من أبعد ما يتصور وقوعه من النبي ﷺ، وهو المسدد بتوفيق الله الناطق بوحيه وإعلامه، وقد أخبر أن هذا اللعين أبا جهل ممن ختم الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

الوجه العاشر:

إن مما يلفت النظر في روايات ذكر الرجلين باسميهما أو وصفيهما أن يعزّ الله الإسلام ويؤيده بأحدهما، أو بأحبهما إلى الله تعالى- أن رواية زيد بن أسلم في حديث خبَّاب بن الأرت تعيِّن اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ بهذا الدعاء،

فقد جاء في هذا الحديث أن عمر بن الخطاب لما وصل في قراءة الصحيفة التي وجدها عند أخته فاطمة بنت الخطاب، وزوجها ابن عمها سعيد بن زيد من سورة طه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه: ١٤)

قال: لا ينبغي لمن يقول هذا أن يُعبد معه غيره، دلونى على محمد ﷺ فخرج القوم الذين كانوا في بيت أخته من مخابئهم في البيت التي اختبئوا فيها فرقًا من عمر، وكان فيهم خباب بن الأرت يقرئهم، يتبادرون بالتكبير استبشارًا لما سمعوا عمر يقول ما يقول، ويسأل عن النبي ﷺ ليسلم بين يديه، ثم قالوا لعمر إظهارًا لفرحهم بهدايته: أبشر يا ابن الخطاب، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: (اللهم أعز الإسلام بعمرو أي أبي جهل أو بعمر أي ابن الخطاب) وإنا نرجو أن تكون دعوته لك، فأبشر.

وموضع لفت النظر في هذه الرواية أنها عينت يوم دعاء النبي ﷺ أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين، وأنها ذكرته باسمه في الأيام إذ قالت: دعا يوم الاثنين وهذا اليوم، يوم الاثنين في كلام الراوي لا يحتمل إلا يوم الاثنين من الأسبوع الذي دخل فيه عمر بن الخطاب بيت أخته وزوجها لينههما عن الذي بلغه من إسلامها، واتباعها لمحمد ﷺ، وهذا اليوم

المعيّن لا يتعدى أن يكون قد مضى عليه قبل إخبار الراوي عنه أكثر من ثلاثة أيام.

فمتى كان إذن دعاء النبي ﷺ على ملأ قريش عامة وتوعدهم بالذبح وتخصيص أبي جهل منهم بأنه في المذبوحين المتوعدين بالهلاك على الكفر؟ المروي في أصحّ الصحيح؟

هل كان هذا الدعاء وهذا التوعُد، وهذا التعيين للخبيث أبي جهل بأنه في المذبوحين كافرًا مخلدًا في جهنم بعد انصراف عمر بن الخطاب من بيت أخته وزوجها متوجهًا إلى رسول الله ﷺ ليسلم، وقد أسلم وأعلن إسلامه وجهر به على الملأ، وفيهم اللعين غميز الرجولة أبو جهل مغيظًا مختنقًا من إسلام عمر رضي الله عنه؟

وهذا فرض غير معقول؛ لأنه بعد تحقق إسلام عمر بن الخطاب، وهو أحد الرجلين في رواية: (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب) لا يبقى معنى لهذا الدعاء والتوعد، مع الزعم أنه ﷺ دعا يوم الاثنين من أيام أسبوع -الدعاءَ على الملأ وفيهم أبو جهل أن يعز الله الإسلام بأحد الرجلين، والمفروض أن أحدهما أسلم وأعلن إسلامه، والآخر مدعو عليه متوعد بالبقاء على الكفر، مذبوح به، أو كان هذا الدعاء والتوعد قبل إسلام عمر بن الخطاب، وهو قد أسلم غداة يوم الاثنين الذي وقع فيه الدعاء بإعزاز

الإســلام بأحد الرجليــن في زعــم الرواية بذكرهمــا معا بغير تعييــن، وحينئذ لا يمكــن أن يقع هذا الدعاء بإعزاز الإســلام وإدخــال أبي جهل في معادلة مع عمر بن الخطاب، لأن الدعاء على أبي جهل بالذبح على الكفر قبل ذلك يخرجه من احتمال الإسـلام بله إعزاز الإســلام به؛ لأنه مقطوع ببقائه على الكفر والعناد.

ويؤكــد ذلك رواية ابن ســعد فــي الطبقات عــن عثمان بن الأرقم أن النبي ﷺ قال في دار الأرقم ليلة الاثنين: (اللهم أعز الإســلام بأحب الرجلين إليــك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشــام)، فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأســلم في دار الأرقم. وهذه الرواية تعيِّن أن النبي ﷺ دعا أن يعزّ الله الإســلام بأحب الرجلين إليه كان ليلة الاثنين التي غدا عمر بن الخطاب في بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأســلم بين يديه، وهي تفسر رواية خباب بن الأرت التي بشر فيها عمر بأن النبي ﷺ دعا يوم الاثنين أن يعز الله الإسلام بأحد الرجلين، فكأنه قال: دعــا بالأمس لأن عمر غدا بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم.

وإذن فــلا يعقــل أن يكون النبي ﷺ قــد دعا على أبي جهل في ضمن دعائه على ملأ قريش، ثم خصصه بالوعيد فقال له: (أنــت منهم) ثم يدعــو الله تعالى أن يعز بهذا اللعين المذبوح

بكفـره وعتوه أو بعمر بن الخطاب، أيهما غير معين الإِسـلامَ ويؤيده به، لأن دعاءه عليه وتوعده بالذبح على الكفر لا يلقى محـلاً ولا يحقق غرضًا، بـل هو غير جائـز، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدعو على إنسـان بخصوصه دعاء يقتضي عقابه في الدنيا والآخرة، ويخبره بأنه سـيكون في ضمن من بعث إليهم بالذبـح علـى الكفـر والعتـو إلا إذا كان ﷺ واثقًـا عن طريق الوحي أن ذلك الشخص المعين سيموت على كفره.

وإذا كان ذلـك كذلـك فأبو جهل يسـتحيل أن يكون ممن يحتمل أن يدخله رسـول الله ﷺ في دعائه أن يعزّ الله الإِسـلام بأحـد رجلين، ويجعله في ميزان مع عمر بن الخطاب الذي ما عكم أن سمع القرآن في بيت أخته(٨)، وقرأ آياته من صحيفتها التي كانت عندها، حتى دخل الإِيمان قلبه، فذهب من توه إلى النبي ﷺ فأسلم وجهر بإِسلامه.

وهـذا كله يصحح حديث عائشـة رضـي الله عنها في دعاء النبي ﷺ بقوله: «اللهم أعز الإِسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ويوهي رواية ذكر الرجلين في دعاء النبي ﷺ.

فالصحيـح الثابت أن النبي ﷺ قـال مناجيًا ربه في ضراعة الإِشـفاق والرحمة لأصحابه وهو ﷺ يراهم يؤذون معتصمين بالصبر الجميل، لا يدفعون عن أنفسـهم: (اللهم أعزَّ الإِسلام

(٨) عَكَم: لَبِث. (المجلة)

بعمر بن الخطاب خاصة) وقد روى هذا الحديث ابن سيد الناس في (العيون) بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مجردًا من ذكر القيد (خاصة) قال: (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب).

وقد يبدو ذكر القيد (خاصة) في رواية من ذكره غريبًا، ولعل حكمته إذا صحت رواية ذكره أن النبي ﷺ شعر بما يهجس في قلوب بعض أصحابه من الأماني والرغبات في أن الله تعالى يهدي لهم رجلًا ممن عرفتهم قريش بالشدة والبأس ولا سيما أولئك الذين يشتدون على المؤمنين، فأراد النبي ﷺ تقوية قلوب هذا البعض من أصحابه، فأعلن هذا الدعاء، وقيده بمن أعلمه الله به بالوحي، وأنه عمر بن الخطاب خاصة.

طلب إعزاز الدعوة بإسلام عمر:

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وألقى في قلب عمر الإيمان غداة إجابة دعاء النبي ﷺ فأسلم وأعزّ الله به الإسلام والمسلمين.

أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف منا القوم، وأنزل الله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٤)

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلًا وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فأنزل الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٤)

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن المسيب، وسعيد بن جبير، قالا: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلًا، وست نسوة، ثم أسلم عمر نزلت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٤)

قال ابن كثير: وفي هذا نظر، لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى الحبشة، وفي هذا النظر نظر، لأن مدنية الآية لم يذكر له ابن كثير سندًا يعتمد عليه، وكل ما يمكن التماسه لدعوى ابن كثير أن الآية من سورة الأنفال، والأنفال مدنية باتفاق، ولا يلزم من كون الآية تلاوة في سورة مدنية أن تكون الآية مدنية نزولًا، لأن مدنية السور ومكيتها باعتبار الغالب، لا باعتبار جميع الآيات، وكثير من الآيات المدنية وضعت بالتوقيف في سور مكية، وكثير من الآيات المكية وضعت توقيفًا في سور مدنية، قال أبو القاسم القشيري: إن الآية

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾

(الأنفال : ٦٤)

مكيـة كتبـت بأمر رسـول الله ﷺ في سـورة مدنية، وهذا الكلام أدق من كلام ابن كثير، لأن كلام القشـيري يشعر بأنه ناقـل وعنده سـند نقلـه، إذ هذا الـكلام بمعزل عـن أن يقال بالرأي والاجتهاد.

عدد المسلمين يوم أسلم عمر بن الخطاب

وإسـلام عمـر كان بعد إسـلام حمزة بأيام، وإسـلام حمزة قديم، كان في مدة الاستسـرار بالدعوة، والهجرة إلى الحبشة بدأت مبكرة قبل إسلام حمزة وعمر، وتعددت مراتها.

وقصة عمر وهو على شركه مع أم عبد الله بنت حثمة، وهي تسـتعد إلـى الهجرة مـع زوجها تدل على أن إسـلام عمر كان في مبتدئها، لأن عدد المسـلمين قبل إسلام عمر كان يتراوح بين الثلاثين وكسـرها، فلما أسـلم عمر كملهـم أربعين قال ابن إسـحاق: أسـلم عمر عقـب الهجرة الأولى إلى الحبشـة، وكان عدد من هاجر في هذه الهجرة الأولى عشـرة رجال كما يقول ابن إسـحاق، معهم أربع نسـوة وخالفه ابن سـيد الناس فـي (العيـون) فجعل عددهم اثني عشـر رجلًا وأربع نسـوة، قـال: وكانت الهجـرة إلى أرض الحبشـة مرتيـن، فكان عدد المهاجرين في المرة الأولى اثني عشر رجلًا وأربع نسوة.

وتختلف الروايات في عدد المسلمين عند بدء الهجرة إلى الحبشة، وعند إسلام عمر، فرواية أنهم كانوا تسعة وثلاثين وكملهم عمر أربعين، ذكرهم ابن حجر في الفتح في ترجمة عمر، قال: روى ابن أبي خيثمة عن عمر قال: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون، فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه وأعز الإسلام.

قال العلماء: وهذا التقدير مرجعه إلى أن عمر إنما ذكر من عرفهم واطلع عليهم من المسلمين، وكان هناك عدد منهم لم يعرفه عمر ولا اطلع عليه، لأن غالب من أسلم في فترة استسرار الدعوة كان يخفي إسلامه، ثم إن عمر اقتصر في إخباره على الرجال، ولم يذكر النساء، لأنهن لا إعزاز للإسلام بهن في مدة استسرار الدعوة، لضعفهن، والحرص على عدم ذكرهن، وتعريضهن للفتنة في دينهن.

وقد حدد ابن سعد في الطبقات عن سعيد بن المسيب الوقت الذي أسلم فيه عمر فقال: إن عمر أسلم في ذي الحجة سنة ست من المبعث أي من النبوة وسنة اثنين أو ثلاث من بدء الرسالة بعد حمزة بثلاثة أيام.

وقال القسطلاني في المواهب: وكان عدد المسلمين إذ ذاك أي إذ أسلم عمر بضعة وأربعين رجلًا قال شارحه الزرقاني: وزادوا إحدى عشرة امرأة، هذا قريب مما ذكره ابن سيد الناس

في (العيون) فقد ذكر المؤمنين السابقين في مدة الاستسرار بالدعوة بأسمائهم وأنسابهم فقاربوا ستين شخصًا، ما بين رجل وامرأة.

إسلام عمر يمثّل خصائصه الذاتية:

كان إسلام عمر بن الخطاب صورة لشخصيته، يمثل خصائصه النفسية والعقلية، والإرادية، كما يصورها تاريخ حياته، قوة، وشجاعة، وجرأة مقتحمة، وصراحة لا تعرف المداهنة، ولا المداورة، وإدراكًا ملهما، وفطنة ألمعية، ورجولية غلابة قاهرة.

فعمر رضي الله عنه قوي لا يسلم إلا إسلام الأقوياء، وعمر عبقري الإدراك فلا يسلم إلا إسلام العقل المفكر المستقيم، وعمر شجاع لا يسلم إسلام الجبناء الرعاديد[٩]، ولكنه يسلم إسلام ذوي الشجاعة الذين يعرفون لأنفسهم حقها في الكرامة والعزة، وعمر جريء لا يسلم إلا إسلام المقتحم الذي لا يهاب ما هناك من المخاطر، وعمر ألمعي الرأي، فلا يسلم إلا إسلام من شهد الحق بعقله وبصيرته فعرفه واهتدى إليه بنور تلك البصيرة وذلك العقل الدراك المستقيم.

---

(٩) الرعاديد: جمع رِعديد وهو الجبان الذي يدع الحرب من شدة الخوف. (المجلة)

اختلاف سياق الروايات في إسلام عمر:

فلم يُسلم عمر خوفًا ولا رَهَبًا، ولم يسلم عمر طمعًا ولا رَغَبًا، ولم يسلم تقليدًا وتبعية، ولكنه أسلم مستقلًا حرًا كريمًا، فإسلام عمر إسلام إيمان وصدق، وقد تعددت الروايات في طريقة إسلامه.

الرواية الأولى:

١- تقول بعض روايات بدء إسلام عمر - وهي من رواية ابن إسحاق: إنه خرج متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ، استجابة لتحريش قريش، وتذميرهم، وتطلعًا لسمعة الفتوة الجاهلية، أو طمعًا في جائزة أبي جهل التي جعلها لمن يقتل محمدًا ﷺ، فلقيه في طريقه نعيم بن عبد الله النحَّام - وهو عَدَوي مثل عمر -.

وكان نعيم يكتم إسلامه خوفًا من عمر وأمثاله من المتجبرين في قريش، فقال له: أين تريد يا عمر؟ ولا بد أن يكون نُعَيم قد قرأ في وجه عمر شيئًا جعله يسأل عمر عن وجهته، وأجاب عمر عن سؤال نُعَيم فقال: أريد محمدًا، هذا الصابئ الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال نُعَيم: قد والله غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟

أفــلا ترجع إلــى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قــال عمر: وأي أهل بيتــي؟ قال نعيم: ختنك وابن عمك ســعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أســلما، واتبعا محمدًا على دينه، فعليك بهما.

وفــي رواية أن الذي لقيه فــي طريقه، وهو ماضٍ في عزيمته المظلمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا، قال سعد: أنت أحقر وأصغر مــن ذلك، فكيف تأمن بني هاشــم وبني زهرة ــــ عمومة النبي ﷺ وخئولته؟ ومنهم سعد بن أبي وقاص ــ وقد قتلت محمدًا؟ قــال عمر لســعد: ما أراك إلا قد صبــأت، وتركت دينك الذي أنــت عليــه، قال ســعد: نعم، إني أشــهد أن لا إلــه إلا الله وأن محمدًا رســول الله، فسلّ عمر سيفه، وكشف سعد عن سيفه، وشــدّ كل واحد منهما على الآخر حتى كادا أن يختلطا، فقال ســعد: أفــلا أدلّك على العجب يا عمــر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه.

ولا تنافي بين الروايتين لاحتمال أن يكون نُعَيم وسعد لقياه في طريقه، واحدًا بعد آخر، وهو يخطو إلى عزيمته الســوداء، فأخبــراه بخبر أختــه وختنه ليصداه عن قصــده، وتصرف كل منهما بما في إهابه، فســعد أَســد من أُسْــد الله، يعرف له عمر قدر شجاعته وفتوة شبابه، فكان بينهما ما كان من تصادم كاد

يـؤدي إلى اختلاطهما قتالًا بسـيفيهما، ونُعيم أحد المؤمنين الصادقين في إيمانهم الذين كانوا يسـتخفون خوف الفتنة في دينهم، ومع ذلك فقد وقف موقفًا كريمًا، لأنه رأى الأمر يتعلق بالنبي ﷺ، فهدد عمر، وأراه أنه مغرور بنفسه عن نفسه، وأن عشيرة محمد ـ وهي من هي ـ لا تتركه يمشي على الأرض إذا هو نال من محمد ﷺ نيلًا يؤذيه، فضلًا عن قتله.

فلما سـمع عمـر ما جبهه به نُعَيم وسـعد عن إسـلام أخته وختنه أُخذ عن نفسـه، وذُهل عن عزيمته، فخنس عنها، وعاد عامدًا إلى أهل بيته الذين أسـلموا من وراء ظهره، وهو مخمور بغفلة العنجهية الجاهلية.

ودخل علـى أخته وختنه، فقال لأخته: يا عدوة نفسـها؟! بلغنـي أنـك صبوت، وأخـذ بلحية ابن عمه ختنـه فبطش به، وجلس على صدره، فجاءتـه أخته لتخلص زوجها منه فلطمها لطمة أدمت وجهها، فبكت، وقالت لهذا الجبار الباطش وهي معتصمة بقـوة إيمانها: أتضربني يا عدو الله على أن أوحِّد الله تعالى! لقد أسـلمنا على رغـم أنفك يا ابن الخطاب، فافعل ما كنت فاعلًا، فقد أسلمنا!

فارعـوى عمر، وأخذ صحيفة كانت عند أخته وختنه، فيها بعض سور من القرآن الكريم، آيات من أول سورة (الحديد)، وسـورة (طه) وسورة (الحاقة) وسـورة (التكوير)، فلما قرأ

من القرآن ما قرأ ذهب عنه رجز الشيطان وفتح الله قلبه لنور الهداية، وقال: دلُّوني على محمد ﷺ حتى آتيه فأُسلم، فقالوا له: هو في بيتٍ أسفل الصفا ـ دار الأرقم ـ معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، قيل: من هذا؟ قال: قلت: عمر بن الخطاب وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، ولم يعلموا بإسلامي فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب، ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحًا سيفه، ففزع ورجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا سيفه، فقال حمزة: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرّا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «إيذن له» فأذن له، ودخل وقد أخذ حمزة والزبير بضبعيه حتى أوقفاه بين يدي رسول الله ﷺ، فأخذ ﷺ بحجزته ثم جبذه جبذةً شديدة[١٠]، نتره بها نترةً فما تمالك نفسه عمر أن وقع على ركبتيه وارتعدت فرائصه من هيبة رسول الله ﷺ، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة» فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب

(١٠) جذبه وجبذه بمعنى واحد. (المجلة)

رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فكبَّروا جميعًا تكبيرةً واحدة سُمعت بطرق مكة.

قال ابن إسحاق عقب هذه الرواية: فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

الرواية الثانية:

٢- ثم ذكر ابن إسحاق رواية المكِّيين عن إسلام عمر فقال: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي عن أصحابه: عطاء ومجاهد أو عمن روى ذلك أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك فجئتهم فلم أجد أحدًا منهم فيه. فقلت: لو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين، الركن الأسود، والركن اليماني، فقلت حين رأيته: والله لو استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت: لئن دنوت منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويدًا ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله، ما

بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رقَّ قلبي له، فبكيت ودخلني الإِسلام، فلم أزل قائمًا في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، فتبعته حتى أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسّي عرفني، فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأؤذيه، فنهمني[١١]. ثم قال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟» قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله فحمد اللهَ رسولُ الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر» ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات.

الرواية الثالثة:

٣- ذكر ابن سيد الناس في (العيون) بسنده عن أسلم مولى عمر قال: قال لنا عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من بعض قريش، فقال لي: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وما ذاك؟ قال أختك قد صبت، فرجعت مغضبًا، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه،

(١١) نهمني أي زجرني. (المجلة)

وقـد ضم إلى زوج أختـي رجلين، فجئت حتـى قرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، وكان القوم جلوسًـا يقرءون صحيفة معهم، فلما سـمعوا صوتي تبـادروا واختفوا وتركوا أو نسـوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لـي، فقلت لها: يا عدوة نفسـها قد بلغني أنـك صَبَوت، قال عمر: فأرفع شـيئًا في يدي فأضربها به، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، ثـم قالت: يا ابن الخطاب: ما كنت فاعلًا فافعل، فقد أسـلمتُ، فدخلت وأنا مغضب فجلسـت على السـرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أَعْطِنيه، فقالت: لا أعطيكه، لسـت من أهله، أنت لا تغتسـل من الجَنابة، ولا تطَّهر، وهذا لا يمسـه إلا المطهّرون، فلم أزل بهـا حتـى أعطتنيه فإذا فيه «بسـم الله الرحمـن الرحيم» فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعت إليّ نفسي، فإذا فيها

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

(الحديد: ١)

فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت، ثم ترجع إليّ نفسي، حتى بلغت

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾

(الحديد: ٧)

حتى بلغ إلى قوله:

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

(الحديد: ٨)

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشارًا بما سمعوا مني، وحمدوا الله عز وجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما بعمر بن الخطاب» ـ وقد وَهَّينا هذا الحديث بهذه الصورة ـ وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، فأبشر.

تنزل غيث الإيمان على قلب عمر

قال عمر: فلما أن عرفوا مني الصدق، قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ، قالوا: هو في بيت في أسفل الصفا، ـ وصفوه ـ فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وعرفوا شدتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا إسلامي، فما اجترأ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ: «افتحوا له فإن يُرِدِ الله به خيرًا يَهْده» ففتحوا لي، وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ، فقال: «أرسِلوه» فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع قميصي فجبذني إليه، ثم قال: «أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده» قلت: أشهد

أن لا إلـه إلا الله وأنـك رسـول الله، فكبـر المسـلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة.

وقد كان الرجل إذا أسلم استخفى، ثم خرجت فكنت لا أشـاء أن أرى رجلًا إذا أسـلم ضُرِب إلا رأيتـه، فلما رأيت ذلك قلـت: لا أحـب أن لا يصيبني ما يصيب المسـلمين، فذهبت إلـى خالي، وكان شـريفًا فيهم، فقرعت البـاب عليه، فقال: من هذا؟ قلـت ابن الخطاب فخرج إليّ، فقلت: أشـعرتَ أني قـد صبـوت، قال: نعـم؟ قلت: نعـم، قال: لا تفعـل، قلت: بلى قد فعلت، قـال: لا تفعل، فأجاف الباب دوني، وتركني، قلت: مـا هذا بشـيء، فخرجت حتى جئت رجـلًا من عظماء قريـش، فقرعت عليه البـاب، قال: من هـذا؟ قلت: عمر بن الخطـاب، فخرج إلـيّ فقلت له: هل شـعرت أني قد صبوت، فقال: أوَفعلت؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، قلت: قد فعلت، قـال: لا تفعل، ثم قام فدخل فأجـاف الباب دوني، فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لي رجل: تحب أن يُعلَم إسلامُك؟ قلت: نعـم، قال: فإذا جلس الناس فـي الحِجْر واجتمعوا أتيت فلانًا -لرجـل لم يكن يكتم السـر- فأصغ إليه، فقـل له فيما بينك وبينه: إني قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليك ذلك، ويصيح ويعلنه، فلما اجتمع الناس في الحِجْر جئت إلى الرجل فدنوت منـه، فأصغيـت إليه فيما بيني وبينه، فقلـت: أعلمت أني قد

صبــوت ، فقال : أصبوت ؟ قلت : نعم ، فرفع صوته بأعلاه قال : ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . فما زال الناس يضربوني وأضربهم ، فقال خالي : ما هذا ؟ قيل : ابن الخطاب ، فقام عليّ في الحجر ، فأشار بكمه فقال : ألا إني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عنــي ، وكنت لا أشــاء أن أرى أحدًا من المســلمين يُضرب إلا رأيتــه وأنــا لا أُضرَب ، فقلت : ما هذا بشــيء حتــى يصيبني ما يصيب المســلمين ، فأمهلت حتــى إذا جلس الناس في الحجر وصلــت إلــى خالي ، فقلت : اســمع ، فقال : ما أســمع ؟ قلت : جــوارك رد عليــك فقال : لا تفعل يا ابن أختــي ، قلت : بلى هو ذاك ، فقال : ما شــئت ، فما زلــت أُضرب وأَضرب حتى أعزّ الله الإسلام .

شموخ الإيمان في مدارك عمر:

أســلم عمر بــن الخطاب رضي الله عنه بعقلــه وقلبه وروحه ووجدانه ، وملأ الإســلام جوانب نفســه ، وملك عليه شــعوره وحواسه ، فلم يرض لنفسه ما رضيه جمهور إخوانه : المؤمنين السابقين من الاستسرار بإسلامهم ، ولم يرض لنفسه أن يظفر بالعافية ، يعيش بين أحضانها ، وإخوانه في الإسلام ينالهم من الأذى والبــلاء مــا تنوء بــه قواهم ، وترزح تحت نيــره قُدَرهم ، يسامون ســوء العذاب ، يُضْربون ، ويُشــتمون ، ويَسْفه عليهم السفهاء ، ويستهزئ بهم المستهزئون ، وأبى عمر إلا أن يعلن

عن إســلامه، ويجهر بإيمانه على سمع ملأ قريش في أنديتهم ومجالســهم وهو أعــرف بعنجهيتهم وجبريتهــم، ليصيبه ما يصيب إخوانه المسلمين الذين حبسهم الخوف في دار الأرقم مســتخفين بإيمانهم اتقاء بطش قريــش وظلمها، حتى يجعل الله لهم من ضيقهم فرجًا، ومن عسر الحياة يسرًا ومخرجًا.

روى ابــن إســحاق عن نافع، عن عبد الله بــن عمر قال: لما أســلم عمر قال: أيّ قريــش أنقل للحديــث؟ فقيل له: جميل بــن معمر الجُمَحي، فغدا عليه، وغــدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أســلمت، ودخلت فــي دين محمد ﷺ فوالله مــا راجعه حتى قام يجــر رداءه، واتبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ــوهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر خلفه: كذب، ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورســوله، فثاروا عليه، فما زال الناس يقاتلونه، ويقاتلهم حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطلح عمــر فقعد(١٢)، وقاموا على رأســه، وهو يقــول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بــالله أن لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها لكم أو تتركوها لنا.

---

(١٢) طَلِح أي أصابه الإعياء. (المجلة)

فبينمـا هـم على ذلـك إذْ أقبل شـيخ من قريش عليـه حُلّة حِبَرة[١٣]، وقميص موشًّى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالـوا: صبأ عمر، قـال: فَمَه؟ رجل اختار لنفسـه أمـرًا فماذا تريـدون! أترون بني عدي بن كعب يسـلمون لكم صاحبهم؟ هكذا، خلُّوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه.

وفـي رواية ذكرها الزرقاني في شـرح المواهب أن أبا جهل رأى النـاس، وهـم يضاربون عمـر، فقال: ما هـذا؟ قالوا: ابن الخطـاب قد صبأ، فقام أبو جهل على الحجر فقال: ألا إني قد أجـرت ابن أختي ــ وأم عمر حنتمة بنت هاشـم بن المغيرة، بنت عـم أبي جهل، فهي أخته منزلة ـ فانكشـف عني القوم، فكنت لا أزال أرى مسلمًا يُضرب ولا يَضربني أحد، فقلت ألا يصيبني ما يصيب المسـلمين؟ فأمهلت حتى جلس الناس في الحجـر، فجئت إلى خالي ـ أبي جهل ـ فقلت: اسـمع، قال: ما أسمع؟ قلت: جوارك رد عليك، قال: لا تفعل يا ابن أختي، قلت: بل هو رد عليك، فقال: ما شئت فافعل فما زلت أضرب ويضربوني حتى أعز الله الإسلام.

لقد نكأ عمر بن الخطاب جرح الشـرك، وفقأ عين الوثنية بإعلان إسـلامه، ورد جوار رأس الكفر أبي جهل ورضي بجوار الله تعالى، ليشارك إخوانه المؤمنين ما يلقون من أذى في سبيل

(١٣) حلة حِبَرة أي فيها وشي. (المجلة)

دينهم وعقيدتهم، وتجلبب قوة الإيمان، فَضُرب وضَرَبَ حتى أعيت به قريش، واستسلمت ذليلة أمام عزة الإيمان وقوته في نفس عمر رضي الله عنه.

إسلام عمر كان تمهيدًا للجهر بالدعوة:

وعمر رضي الله عنه -منذ أسلم- صاحب إلهام، وموافقات، يراها بإلهامه، فينزل القرآن بموافقته مصدقًا له فيما رأى توفيقًا من الله تعالى.

وتبدأ موافقات عمر، وتأتي طلائع إلهامه وألمعيته، فيذهب إلى النبي ﷺ -بعد أن جلس بإيمانه في كل مجلس جلس فيه بالكفر، فطأطأت قريش أعناقها لإسلامه، ولم تستطع أن تنال من إيمانه شيئًا- يقول: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فيقول له النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم، وإن حييتم» فيقول عمر: ففيم الخفاء يا رسول الله، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟ ويقول النبي ﷺ إشفاقًا على أصحابه، وتهييجًا لعزائم أولي القوة منهم: «يا عمر إنا قليل، قد رأيت ما لقينا» ويقول عمر: والذي بعثك بالحق نبيّا لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان.

وأذن الله تعالى لدعوة الإسلام أن تعلن عن نفسها، وأذن لرسولها ﷺ أن يجهر بها بعد أن تحققت حكمة الاستسرار بها، وبعد أن توافرت عوامل الجهر والإعلان، وأصبح

المسلمون في قوة تمكنهم من الانتصاف لأنفسهم، فاستجاب رسول الله ﷺ لرغبة عمر في إظهار الدعوة والجهر بها، وأن ينادي الناس بأمره، وخرج رسول الله ﷺ - كما يقول عمر - في صفَّين من أصحابه، أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، ولنا كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلينا قريش فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط، ويومئذ سمَّى رسول الله ﷺ عمر (الفاروق).

ودخل الناس في دين الله أفرادًا وجماعات، وفشا ذكر الإسلام بين الناس، وتحدثوا به في منازلهم وأنديتهم ومجالسهم، ومحافلهم، وأسواقهم ومواسمهم، وتمت كلمة الله، ومضت الرسالة الخالدة في سيرها تفتح القلوب، وتكافح أعداءها متدرِّعة بالصبر الجميل، وتنزّل نصر الله متدرجًا مع تدرج الوحي بالتشريع، حتى أكمل الله نعمته على عبده ورسوله وعلى المؤمنين.

نفحَاتُ الإعجَاز في إسلَام عمَر

كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ، وكان آية من آيات الحكمة الربانية التي تُمسك بزمام هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، فتوجهها في سيرها ثابتة الخطا، وطيدة الأركان، راسخة الدعائم قوية البناء.

وإسـلام عمر رضـي الله عنه كان إعجازًا متعـدد الجوانب، نديّ الرغائب، ثري الحقائق، يتمثل في اسـتحالة نفسية عمر وطبيعتـه الجاهلية، وخصائصه الوثنية -في لحظة من لحظات الزمـن التـي تمر بها الحيـاة، فتحمـل معها فيمـا تحمل من الأحـداث الجسـيم الخطير، الذي تعجز العقـول عن تعليله، وإدراك أسـبابه ودوافعـه، فلا تملـك إلا أن تـرده إلى الغيب، وتحيلـه إلـى الأقـدار، كأثر مـن آثار سـلطانها علـى الحياة، وقهرهـا لقوانينهـا الطبيعية، وسـننها الاجتماعيـة المألوفة لعقول الناس ومشـاهداتهم الحسـية- إلى نفسـية جديدة، لا تعـرف عُمَر الجاهليـة، ولا يعرفها، نفسـية خُلقـت إبداعًا، فاستحالت غلظتها الجافية المتحجرة إلى قوة إنسانية رحيمة حانية، واسـتحالت قسـوتها العارمة إلى هداية وعدل، ينصر الضعفاء، ويضمد جراحهم، ويعز الحق ويؤيده.

لمحات من حياة عمر في جاهليته:

كان عمـر فـي جاهليتـه رجلا مـن فتيان قريش، مشـبوب القوى، قوي الشـكيمة، حديـد العزيمة، مرهـوب الجانب، رهيب السـمعة، لا يرام ما وراء ظهـره، ولا تُعرَك أذنه، يعيش عيشـة الفتيان الأغرار، عيشـة لا تستهدف إلا سمعة داوية في الأسـواق والمحافل، يتردد صداها خوفًا منـه ورهبة له، غارقا فـي وثنيـة متبلدة، وشـرك وضيع، يتشـاطر مفتونـًا بالخمر

وندمانها، لا يشغله في حياته شاغل غير نفسه وأهوائها، حياة فارغة إلا من تفاهات جاهلية، يستهويه التردد على الأسواق ليصارع الأشدة من أقرانه.

يقول ابن سعد في الطبقات: إن أبا التيَّاح حدث في مجلس أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: لقي رجل راعيًا فقال له: أشعرت أن ذلك الأعسر اليسر - يعني عمر بن الخطاب - قد أسلم؟ قال الراعي الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ قال: نعم، قال: أما والله ليوسعنهم خيرًا أو ليوسعنهم شرّا، فلما جاء الله تعالى بالإسلام، وبعث نبيه محمدًا ﷺ رسولاً إلى العباد، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويقيم لهم معالم الهداية، وينصب لهم على جواد الحياة منائر الحق والعدل، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم من غبش الوثنية والشرك، ليعرفوا ربهم عرفان صدق وإخلاص بتوحيده وإفراده بالعبادة والدعاء، ويعرفوا حق إنسانيتهم عليهم، فلا ينزلوا عن كرامتها لأحد من الخلق - كان عمر بن الخطاب في طليعة المباعدين له، المشمرين عن سواعد الغرور والعنجهية لمناهضته، ومقاومة دعوته، فكان من أقسى الناس وأشدهم أذى لرسول الله ﷺ وأصحابه، كما أخبر عمر نفسه عن نفسه بذلك، فقد جاء في حديث مولاه أسلم قال: قال عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت

من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، وقال : حينما ذهبت إلى دار الأرقم لأسلم على يدي رسول الـه ﷺ : فقرعت الباب ، قيل : من هذا ؟ قلت : عمر بن الخطاب ، وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ، ولم يعلموا بإسلامي .

وتقول أم عبد الله بنت أبي حثمة وهي تحدث عن عمر وقد أتاهم وهم يستعدون للهجرة إلى الحبشة : وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا . وتقول أم عبد الله – وقد –حدَّثت زوجها عامر بن ربيعة عما رأته من رقة عمر لهم وهم على أهبة الهجرة ، قال عامر : أطمِعْتِ في إسلامه ؟ قالت : نعم ، قال عامر : فلا يسلم هذا حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت أم عبد الله : يقول ذلك ـ أى زوجها عامر بن ربيعة ـ يأسًا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإِسلام .

وكتب السيرة تروي أن عمر كان ممن غمس يده قبل أن يسلم في تعذيب المستضعفين من المسلمين ، قالوا : كانت له جارية رومية تدعى (زنيرة) سبقته إلى الإِسلام ، فكان يعذبها ، ويشتد في تعذيبها والقسوة عليها ، حتى أفقدها بصرها ، وكان يشاركه في تعذيبها طاغية الكفر أبو جهل ، لترجع عن إسلامها فتأبى ـ وهي صابرة محتسبة ـ إلا الإِسلام .

روى ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال : كان لعمر أمة أسلمت قبله ، يقال لها (زنيرة) ، فكان يضربها على إسلامها

حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان ما أتى به محمد خيرًا ما سبقتنا إليه (زنيرة)، فأنزل الله في شأنها وشأنهم قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ (الأحقاف: ١١)

وكان المشركون يقولون: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فتقول لهم (زنيرة): هذا أمر من السماء وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري، فردّ الله تعالى عليها بصرها.

و(زنيرة) ممن أعتقهم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم، بعد أن اشتراهم من الطغاة لينقذهم من أليم العذاب، ويذيقهم سعادة الحرية في ظل الإسلام.

وكأنما كانت هذه الغلظة القاسية مكبوتة في طبيعة عمر، لا يعبر عنها في حياته الجاهلية إلا تفتّيه وتشطُّره في الأسواق والمحافل، وتخلقه بأخلاق الجاهلية التي كانوا يرونها شجاعة وأنفة.

تروي بعض كتب الأدب والتاريخ التي تحدثت عن رذيلة وأد البنات عند الجاهلية أن عمر في جاهليته كان ممن قارف هذه السيئة، فقد ذكروا أنه أخذ بنتًا له صغيرة، فأصحر بها متنائيًا، وجعل يحفر لها ليدفنها حية، ويدسها في التراب،

اتقاء عارها، وبينما هو يحفر لها، والطفلة إلى جانبه لا تدري ما يريد بها هـذا الأب المتحجـر القلب، إذا بشـيء من غبار الحفيـر يتطاير إلـى لحيته، فأخـذت الطفلة مسـوقة بعاطفة البنوة، وبراءة الطفولة تنفض عنه الغبار، وهو ماض في عمله، لا تحركـه إلا قسـوةٌ فقد معهـا حنان الأبوة ورحمـة الطفولة، وعواطف الإنسانية.

ولـم تكن هـذه الأحداث الجاهلية لتشـبع غريزة القسـوة في طبعه ولا لتطفئ غلة تعطشـه للبطـش، ولا لترضي ميراثه المتحـدر إليه من أبيه الخطـاب وخئولته المخزومية من أمثال أبي جهل.

وأقام عمر هو وأمثاله من شـباب التفتِّي الوثني، والتشـطُّر الجاهلـي الكفور يترقبون الأحداث لينفثوا سـموم غرائزهم، ويتنفسـوا مـن أزمات الكبـت الجاهلـي، حتى جاء الإسـلام بدعوته الهادية الرشيدة، التي كان أول طلائع أهدافها القضاء على كل أثر وثني، وهدم معالم الشرك بكل ألوانها، وأنواعها، وكل مـا يتصل بها مبـدأً ونهاية من رذائل وعـادات وأخلاق، ونظم اجتماعية ظالمة.

ودلف إلى سـاحة الإسـلام إيمانًا بدعوته، واعتناقًا لمبادئ رسـالته عـددٌ من شـباب قريش وأبنـاء بيوتاتهـا ممن صفت فطرهم، وزكت عقولهم، فاستجابوا لدعوته، وآمنوا برسالته،

واهتدوا بهديه، ودخلوا مع رسـول الله ﷺ دار الأرقم، أول دار اتخذها الإسلام دارًا له، ومعهدًا لدراساته وعلومه ومعارفه التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ قرآنًا يتلوه عليهم، ويبين لهم طرائق هدايته.

ودخـل معهم في سـاحة الإيمان مسـلمين، مهتدين بهدى الله، مؤمنيـن برسـالة نبيـه محمـد ﷺ – عـددٌ مـن الأرقـاء والمسـتضعفين ذوي القلـوب الصافيـة مـن دغـل الوثنيات وأرجاس الجاهلية، وذوي النفوس الصبورة على احتمال البلاء وشـدة الأذى في سـبيل إيمانهـم وعقيدتهم، ممـن أرمضهم الظلم الاجتماعي وشـدخ يافوخ إنسـانيتهم طغيان الجاهلية، وبطـش المتجبرين، وبأو المسـتكبرين(١٤)، وعتو أهل البغي والفجور، وصلف الكفر والجحود، وفسولة الشرك والوثنية.

قسوة عمر ترسب جاهلي موروث:

وقسـوة عمر بن الخطاب وغلظته فـي جاهليته التي عُرف بهـا بين قومـه خاصة وفي قريـش وغيرها بصفـة عامة طبيعة موروثة، تحدرت إليه حتى ترسبت في نفسه من:

أولاً: عصبتـه وقومه بنـي عدي، الذين انبثـق من دوحتهم فرعه في عمومته وخاصة بيته.

---

(١٤) البأو الزهو والافتخار. (المجلة)

ثانيًـا : خئولتـه بني مخـزوم عامـة ، وآل المغيـرة خاصة ، لأن أمـه حنتمة بنت هاشـم بن المغيرة ، بنت أخـي الوليد بن المغيرة ، وبنت عم أبي جهل ابن هشام بن المغيرة .

فعصبـة عمر بنو عـدي كانوا في الجاهليـة أقل عددًا في بطـون قريش من سـائرهم ، وكانوا أقل ثـراء وأموالاً منهم ، وكانـوا أضعف قريش حركة في تقلبـات تجاراتها ، وكانوا مـن أبعـد بيوتها عن تولـي المناصب الهامة فـي الجاهلية - ولا سـيما المناصب التي تتصل بالكعبة المشـرفة والبيت المحرم ، وزواره ، والوافدين لحجِّه من أقاصي البلاد العربية وأدانيها ، من كل ما يسـتوجب ألوانًـا من المكارم والكرم ، والإنفـاق فـي سـبيل الفخـر والشـرف - مـا أورثهـم كبتًا مغيظًا ، وحنقًا مشـوبًا بشـيء من الحقد الخفي ، والكراهية المتربصة .

ومن ثـم كانت الشـدة الجافية ، والحدة القاسـية ، وجفوة الطبـع ، مظهر ذلك الكبت المحنق الـذي ملأ صدورهم ، ولم يجـدوا له متنفسًـا إلا أن يجعلوا ذلك الدسـيس فـي طباعهم تعويضًـا خلقيّـا عمـا فاتهم من كثـرة العدد ، وأمجـاد التقدم فـي طلائع قريش ، والثـراء الفاحش عند بعضهـم ، وحركات المضاربـة فـي رحلات التجـارة التي لم يكن فيهـا لبني عدي كبير شأن ، ولا ذكر مشهور .

وكأنما قُصد قصدًا أن يوسد إليهم منصب السفارة والمنافرة بين قريش ومن يخاصمها وينافرها من قبائل العرب، ليكف ذلك المنصب (المتعقل) من حدَّة بني عدي، ويفل من جفوتهم، ويجعلهم في حرصهم على الفُلج لقومهم في المنافرات(١٥)، والظفر لهم في المفاخرات أهدأ بحجتهم، وأعقل في سباق مآثر قومهم.

وأقرب الناس في عصبة بني عدي إلى عمر، وألصقهم به، وأدناهم منه أبوه الخطاب الذي تحدر منه إليه مباشرة ميراثُ القسوة وجفاوة الطبع.

وليس وراء وصف عمر نفسه لأبيه في ميراث القسوة والغلظة وصف يفوقه أو يتقدم عليه، فعمر نفسه يصف أباه فيما يرويه ابن سعد في الطبقات عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أقبلنا مع عمر قافلين من مكة، حتى إذا كنا بشعاب ضجنان وقف الناس، فقال عمر: لقد رأيتني في هذا المكان وأنا في إبل الخطاب ـ وكان فظّا غليظًا ـ أحتطب عليها مرة وأختبط لها أخرى، ثم أصبحت يُضرب الناس بجانبي، ليس فوقي أحد.

وعن سليمان بن يسار أيضًا قال: مرّ عمر بن الخطاب بضجنان، فقال: لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا

(١٥) فلج في المنافرة: علا خَصْمَهُ وغلَبه. (المجلة)

المكان، وكان - أي أبوه الخطاب - والله ما علمت فظًا غليظًا، ثم أصبحت إلى أمر أمة محمد ﷺ.

أما خئولة عمر من بني مخزوم عامة، وآل المغيرة خاصة - وفي طليعتهم الوليد بن المغيرة، الكفور العنيد، وابن أخيه أبو جهل الفاجر الكنود، وكان عمر يتشادق بخئولته تفاخرًا به(١٦)، وتباهيًا ببأوه وعنجهيته - فكانوا أولي بأس وعدد، وقوة ومدد، وغرور وكبرياء، جفاة غلاظ الأكباد، تياهين بأموالهم وعددهم ومكانتهم من قومهم، مستكبرين في الأرض بغير الحق، يلون في مناصب قريش ومفاخرها منصب الحرب، ومفخرة الفروسية، يزاحمون بني عبد مناف وينافسونهم في مفاخر الجاهلية ومآثرها، يتسابقون فيها تسابق المضمرات في حلبة السباق.

فلما جاء الله تعالى لبني عبد مناف عامة وبني هاشم خاصة بواحدة، جُدع لها أنف الكبرياء والغرور من مخزوم، وأرغمت عرانين آل المغيرة، وأذلت معاطسهم، ونكست جباههم، فاصطفى من بني عبد مناف ثم من بني هاشم خير من مشى على الأرض إنسانًا، وأفضل من بُعث إلى العباد رسولا، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ورمت لذلك أنف مخزوم، وانتفخ سحر غطاريفهم، وضرع عزهم، فشنفوا لنبي

(١٦) تشدّق في الكلام فتح به فاهه. والشدق لحم باطن الخدين. (المجلة)

عبد مناف، واستزرعوا الحقد لهم في قلوبهم، وأرّثوا نيران الشنآن في صدورهم، فحملوا لواء العدواة والبغضاء لكل ما هو منافي، وزعموا مناهضة الدعوة الإسلامية، ومقاومة الرسالة المحمدية، وكانوا بزعامة الكفور العنيد أبي جهل أعدى أعداء رسول الله ﷺ، وأشدهم إيذاء لأصحابه، فتذامروا مع كل من انضوى تحت لوائهم على الفتك بمن أسلم من رجالاتهم وشبابهم، وبمن اهتدى بهدي الله من الأرقاء والمستضعفين ليردوهم عن دينهم وعقيدتهم.

واستسر رسول الله ﷺ بدعوته، وهو ماض على أمر ربه، لا يرده عنه وعيد ولا إرهاب، والدعوة تنمو وتزداد انتشارًا، والإسلام يفشو بين الناس، ويتحدثون به في مجالسهم، وكثر الداخلون في ساحته، ويشعر غطاريف قريش، وأحلاس الشرك وعبيد الوثنية أن أرض مكة تميد تحت أقدامهم، وأنهم مهددون في حياتهم الجاهلية، وهي مرجع ثرواتهم، ومصدر نفوذهم، ومربح تجارتهم، وأن سلطانهم على المستضعفين والمحرومين قد آذن بالانحسار، يرونه بأبصارهم يهوي إلى هاوية الدمار والفناء، وأن محمدًا ﷺ سيقلب عليهم أوضاع الحياة وأن دعوته ستذهب بنفوذهم وتقوض عروش غطرستهم، وتهدم مكانتهم، وتضعضع أقدارهم، وتعبث بهيبتهم، وأن رسالته ستجعل من العبيد

والأرقاء سادة، ومن المغمورين طلائع وقادة، وأنها ستبخع بَأْوَهم وعنجهيتهم[١٧]، وتذل كبرياءهم وتردهم عن غرورهم وتعاليهم إلى شرعة المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، في ظل توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، والقضاء على الشرك بجميع أنواعه وضروبه وإزالة الفوارق الإنسانية في الحقوق والواجبات.

ضاقت الدنيا برءوس البغي، وزعماء الشرك والوثنية، وسدّت في وجوههم منافذ الرأي لمقاومة محمد ﷺ ومناهضة دعوته، وعميت عليهم طرائق الوصول إلى صد تيار هذه الدعوة التي تزداد وتنمو، ويزداد معتنقوها قوة وعددًا، بعد أن أفحمتهم حجتها، وفوَّقت سهام براهينها إلى أباطيلهم وضلالاتهم الجاهلية[١٨]، فنسفتها نسفًا، فأُبلسوا حيارى لا يدرون ما يفعلون، ودارت رءوسهم فوق أعناقهم منكوسة التفكير، مرتكسة التدبير، كما تدور الرحى على الحصى، تسمع لها جعجعة ولا ترى لها طحنًا، فلم يجدوا في كناناتهم بعد أن عجموا عيدانها المتكسرة إلا نصالاً من الوحشية الجاهلية المتعطشة للطغيان والفجور، فأخذ كل قوم منهم يتفننون في تعذيب من آمن بالله ورسوله من

(١٧) ستبخع بأوهم: ستقتل زهوهم وكبرياءهم. (المجلة)

(١٨) فوَّق السهام إلى كذا وجهها إليه.

شبابهم وأرقائهم، والمستضعفين من الرجال، فحبسوهم، وضيقوا عليهم مسالك الحياة ليمنعوهم من الوصول إلى رسول الله ﷺ في دار الإسلام، دار الأرقم، ويحولوا بينهم وبين الاجتماع بإخوانهم المؤمنين ذوي المنعة والقوة الذاتية الذين لا تستطيع قوة البغي والضلال أن تنال منهم.

وأجاعوهم ليرغموهم على الكفر بدينهم دين الحق، وعقيدتهم التي خالطت حلاوتها مشاعرهم وإحساساتهم، ومداركهم وامتزجت بدمائهم وأرواحهم، وأذاقوهم فادح البلاء وشديد الأذى، وصبّوا عليهم ألوان التعذيب وساموهم سوء العذاب، فلم ينالوا من أحد منهم منالاً، بل كانوا في إيمانهم أثبت من شوامخ الرواسي، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يعزب عنها.

ورأى رسول الله ﷺ بتوفيق الله وتسديده - إشفاقًا على أصحابه، وإنقاذًا لهم مما يصيبهم من آلام وبلاء، لا طاقة لهم على احتماله، ولا طاقة لهم بدفعه -أن يوجه أصحابه إلى الهجرة من هذا البلد الظالم أهله إلى حيث يأمنون على أنفسهم وعقيدتهم يعبدون ربهم مطمئنين، لا يستخفهم إرهاب ولا يستفزهم إيذاء وتعذيب، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».

فخـرج من تمكن من الخروج عند ذلك ، مهاجرين إلى أرض الحبشة .

مكرٌ خبيث وتدبيرٌ خاسر:

فاستشـاط غضب قريش واشـتد حنقهم، وضاعفوا الأذى على من بقي من المسـلمين ، ولـم يتمكن من الهجرة ، وأملى عليهم الشـيطان أخبث رغائبه ، واستهواهم بأشنع وساوسه ، وأرجاسـه ، وألقى إليهم أبشع مكايده وأسـوأ تدبيره ومكره ، وائتمـروا بينهـم أن يقتلوا محمـدًا ﷺ وتنـادى ملؤهم بهذا النعيق الأشـأم، وقالوا في هُجر وسُـعُر : مَنْ رجل يقتل محمدًا ﷺ فقـال عمر بن الخطاب ـ وكان هذا أول وآخر مظهر له مع المـلأ ـ: أنا له ، فقـال المتهاتفون في فرحة بلهـاء : أنت له يا عمر .

روى أبو نعيم في الدلائل عن طلحة وعائشة رضي الله عنهما عن عمر قال : إن أبا جهل رصد لمن يقتل محمدًا ﷺ مئة ناقة حمراء وسوداء ، وألف أوقية من فضة ، قال عمر ـ وكأنه استعظم هذا الجعل ، وخشـي أن يخيس أبو جهل بوعده به ، وأراد عمر أن يوثق الأمر ، ويؤكد الالتزام ـ يا أبا الحكم الضمان صحيح ؟ قال أبو جهل : نعم قال عمر : فخرجت متقلدًا سـيفي ، متنكبًا كنانتي ، أريد رسول الله ﷺ .

ولـم يكن عمر في خروجه هذا يرى في نفسـه ، ولا يتصور

في شعوره وإحساسه إلا أنه يمشي تلبية لرغائب ملأ قريش وطغاتها، ليحقق أخطر ما مشى فيه فتى من فتيانها وأشجع شجعانها، إنه يمشي والشيطان يقوده كالجمل المخشوش ليحقق له ممثلا في أشباح الملأ أعز آماله.

إنه يمشي ليقتل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي المنافي، هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، وأقلق بالها، وحرمها الاستقرار.

وكان قصارى عمر في هذا الممشى أن يفوز بدوي هذه الأحدوثة الفاجرة، تتحدث بها عنه قريش ومن ورائها سائر قبائل العرب في مضاربها ومحافلها وأسواقها ومواسمها، ويفوز بما عزّ عليه أن يملك مثله في جاهليته من رصد أبي جهل وهبته السخية لمن يقتل محمدًا ﷺ وعندئذ يكون عمر قد فاز أيضًا بمقعد بين ملأ قريش إلى جانب الوليد بن المغيرة، وخاله أبي جهل، وابن أبي معيط، وابني خلف، أمية وأُبيّ وغيرهم من غطارفة الشرك وعبيد الوثنية.

خرج عمر - كما تقول بعض الروايات - متقلدًا سيفه ليضرب ضربته التي ستقعده هذا المقعد الذي لم يحلم به أحد من قومه بني عدي، ويعود إلى ملأ قريش منتفخ الأوداج، ملطخًا بدم أعز فتى في بني عبد مناف، وهم أُسد الشرى، لا

ينامــون على ضيــم ولا يعفر جباههم ذل الرضــا بالدنية، ولن يسلمه ملأ قريش إلى هؤلاء الأباة الهاشميين المَنافيِّين الذين لم تُغمز لهم قناة ولا خُضدت شــوكة، ولا ريموا بسوء كِيدوا به إلا دفعوه بحدّ سيوفهم وأسنة رماحهم.

هكذا كانت هواجس عمر في ممشاه هذا، ومن ورائه الملأ من أحــلاس الكفر، وطغاة الوثنية، لا يمــلأ أدمغتهم إلا فتات متعفن من بقايا أشلاء جاهلية، تحفر قبرها بيدها، وهي تمشي إليــه مجللة بالخزي والخذلان. لم يكــن عمر بن الخطاب في ممشــاه هــذا يعرف عــن محمــد - ﷺ - إلا أنــه الصابئ، الذي فرّق قريشًــا، وها هي ذي قد جعلت الجعائل ســخية في قتله، لتخلص إلى فجورها وشركها ووثنيتها، واستبدادها بالضعفاء والمحرومين من عباد الله المعذبين في الأرض.

ولم يكن يمر بخاطر عمر ســاعتئذ، ولا خطر في خياله أنه في ممشاه هذا أذل، وأقمأ من أن يستطيع إطفاء ضوء الشمس وهي مشرقة الضحوة بنفخة مصدورة من فيه.

ولــم يكن يهجــس في نفس عمر يومئذ أنه في ممشــاه هذا أضعف وأخسأ من أن يستطيع الفتك بالحياة وهي متجددة في عنفوان قوتها وشبابها.

ولم يكن لعمر يومئذ نظر يدرك به أنه في ممشــاه هذا كان مفتــون الغرور، يريــد أن يخنق الخير وهو فــي براعمه، يبدل

نهـار الحياة المشـرق ليلاً دامسًـا ، ونور الحـق ظلامًا حالك السـواد ، مغبـر الآفاق ، تعوي فيـه ذئاب الشـياطين ، ويملؤه عزيف المردة من أبالسـة الأناسي ، شـاربي دماء البشر شراهةً وآكلي أكبادهم ظلمًا وبغيًا وعدوانًا .

ومضـى عمر في وجهـه متغضبًا متجهمًـا ، ولكنه لم يكد يمشـي خطوات حجبته عن الملأ في مجالسهم ينتظرون النبأ العظيـم ، حتـى لقيه أحد أبنـاء قومه بني عـدي ، نُعيم بن عبد الله النحَّام ، أحد السُـبق إلى الإسلام ، فاسـتوقفه ـ وكأن نُعيمًا رأى في سـمت عمر ومشـيته القلق والاضطراب ـ سائلًا : أين تريـد يا عمـر ، فقال عمر ـ وهو لا يعلم شـيئًا عن سـبق نعيم إلى الإسـلام ، وأنـه يكلم منذ اللحظة الأولـى جنديّا من جنود الله الذين اسـتجابوا لله ولرسـوله ، وملأ الإيمان برسالة محمد ﷺ قلوبهم ، فكان أحبّ إليهم من أنفسـهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم ، يفدونه بأرواحهم وكل ما عزّ عندهم ـ أريد محمدًا ، هـذا الصابـئ ، فأقتلـه وضحكت الآفـاق تهزأ بعمـر وعزمته وسيفه ، وكأنما سمع نعيم صدى سخرية الآفاق وهزئها بعمر في ممشـاه وهو متقلد سـيفه ليقتلٍ محمـدًا ﷺ ، وكان نعيم يخفـي إسـلامه من قومه عامـة وفرقًا من عمـر بخاصة ، ولكن صولـة الإيمان ، وجسـامة الخطب في ممشـى عمـر جعلا من نعيم أسـدًا من أسد الله ، وضع حياته فداء لرسول الله ﷺ ، فلم

يأبه لسيف عمر، ولم يبال بتجهمه وعزمته الخائرة، فوقف في وجهه يجبهه ويزجره بما لم يكن في حسبان عمر فقال له: لبئس الممشى مشيت يا عمر: ولقد والله غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، ففرطت، وأردت هلكة بني عدي، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمدًا؟

ولم يترك نعيم عمر يلتقط أنفاسه ويصحو من سكرة الغضب التي سقاه كأسها نعيم هذا الذي كان يَفْرَقُ من عمر فَرَقًا يجعله لا يمر في طريق يمر به عمر، ولكنه بدهه بقاصمة الظهر التي تشغله عن غروره بنفسه وتعيده إلى صوابه، وتنسيه الملأ ووعودهم، وأبا جهل وجائزته، فقال له: أفلا ترجع إلى بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال عمر فزعًا، ولما يتم استفاقته من صدمة نعيم التي جبهه بها: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما.

الإيمان يجدد الحياة في النفوس:

سبحان الله!! ماذا صنع الإيمان بهذه النفوس الحبيسة في أرضها، بين شواهق الجبال المخيفة، والوديان القاحلة المقفرة من كل عيش وأمل، والمفاوز الممتدة في بؤس وجهالة، لا تعرف علمًا، ولا تؤثر معرفة؟ وماذا يستطيع الإيمان بالحق

أن يصنع بكل نفس خالطتها بشاشته، وامتزجت بها حقائقه؟

إنه صنع ويصنع الإنسان، يجدد خَلْقه، ويعيده إلى ما في طبيعته الأصيلة من كمال بشري وقوة مهذبة، إنه صنع ويصنع في ظل رسالة محمد ﷺ الحياة الجادة، المستقيمة في صورة لا يعرفها تاريخها من قبل.

ليس في الأمر تخيل ولا مبالغة، ولكنه الواقع المشهود يملي حقائقه، لتسجل بالقلم عبرة وذكرى بعد أن آمنت الحياة بها إيمانًا لا يداخله امتراء.

هذا نموذج من عمل الإيمان وأثره في النفوس التي لم تكن تحلم أن الأمل يناغيها في مهدها لتشب منه خلقًا آخر، يمسك بزمام الكون، فيوجهه له إلى آفاق كان قبل هذا الإيمان أبعد ما يكون عنها، وهو تائه في بيداء الحياة حيران، يعيش في ظل فلسفات وثنية مظلمة، يغلفها الغموض والإبهام، إلى آفاق الخير والهدى والنور والعدل والإصلاح، ومعرفة الله بجلال كمالاته وإشراق وحدانيته.

حقائق جديدة على هذه النفوس، ولكنها أصبحت هي خصائصها التي تحيا بها، وحياتها التي تنبع من داخل ضميرها فتجري فيه أنهرًا، تسقي العقول والأرواح من نميرها، فتبدل بؤسها وشقاءها سعادة، وسخطها رضًا، وجهلها علمًا ومعرفة، وخوفها أمنًا، وظلمها عدلًا، وقسوتها

رحمة، وتباغضها محبة، وتباعدها إخاء ومودة، وتفرقها تجمعًا ووحدة، يتواسى فيها الناس ويتراحمون.

موقف نعيم النحام من عمر:

نعيم بن عبد الله النحَّام العدوي رضي الله عنه -وهو رجل من بني عدي قوم عمر بن الخطاب، سبق إلى الإسلام فآمن بهدايته مع السابقين الأولين وأخفى إيمانه وإسلامه فرَقًا من بطش عمر، فتى فتيان قومه، ورعبًا من قسوته الجاهلية وغلظته الوثنية على أهل الإسلام- يقف في وجه عمر إذ يراه متوشحًا سيفه، يمشي في عزيمة متجهمة، يطوي جوانحه على مُستكنةٍ من الكوارث قاصمة، وقارعة من القواصم مبيدة مدمرة، لا يبالي جبرية عمر وبطشه ولا يقيم وزنًا لقسوته وغلظته، موقفًا يجبهه فيه، ويحقره أمام نفسه، بكل ما تعرف كلمة من تقريع وتحقير، ويريه في صراحة صارمة أنه في ممشاه هذا مغرور مفتون، لا يعرف قدر نفسه. فما هذا الذي أحال نعيمًا الرجل المسلم الذي ظل مستخفيًا بإسلامه رهبة ورعبًا من عمر وقومه، حتى يقف من هذا العاتي الجبار، المغرور بنفسه، هذا الموقف الذي يُعَنْوِنُ شجاعة الأبطال في مواقف النضال؟

إنه الإيمان، والإيمان فحسب، والإيمان ليس غير، الإيمان الذي بلغ من نعيم المسلم في لحظة لا تكاد تكون شيئًا في

حساب الزمن، وسير الفلك، مبلغًا جعله يتصور في لمحة خيال طائر مفزع مرعب، أن عمر حقق عزيمته السوداء، وتصور نعيم مع خياله المزعج أن الحياة كلها أظلمت، فغارت نجومها، وأفل إلى غير عودة قمرها، وغابت إلى الأبد شمسها.

فمن عمر إذن؟ وما جبريته وقسوته وبطشه؟ ومن نعيم وإسلامه؟ وما الحياة كلها في هذا الظلام الدامس؟ إنها الفناء الأبدي، والشقاء السرمدي، والعذاب الذي ليس فوقه عذاب.

وتجمعت عزائم الإيمان في قوتها فملأت جوانب نفس نعيم الرجل المسلم، فكانت فداء للنور والهدى، فداء لشمس الحياة محمد رسول الله ﷺ، واستحال نعيم المسلم المستخفي بإسلامه، الضعيف المستضعف، قوةً قاهرة، وشجاعة مزمجرة، أخذت بمجامع الجبرية الجاهلية في عمر بن الخطاب فتي فتيان الوثنية، ونترتها نترة جثا منها هذا العاتي الجبار المغرور بنفسه وفتوته، بين يدي نعيم المسلم الذي كان يُرْهِبه عتو عمر في جاهليته، فيسأل في ضراعة المخدوع عن نفسه وأهل بيته، فيقول: وأي أهل بيتي أسلم وتابع محمدًا ﷺ على دينه؟

وهنا بدأ الموقف يتغير بكل ما فيه من ملامح من مبتداه إلى منتهاه، فأخذت الحيرة التي فاجأت عمر بما لم يكن يمر

بخلده، ولا يهجس به خاطره، فذهب عنه تجهمه، وسكن بعد تفزز، وهان بعد تعزز، ولان بعد تيبس، ونسي عزيمته السوداء، ونسي ملأ قريش وتحريشهم إياه، وتغريرهم به، ونسي وعد أبي جهل وجائزته، وذهبت فتوته شريدة في أودية الفناء، وذهب تشطره مع أعاصير الصحراء، ولم يبق في تصوره الحائر المهزوز إلا أمر أهله الذين هزءوا به وافتاتوا عليه، هو فتى فتيان بني عدي، ووقف أمام شكوكه حيران مذهولاً، يتساءل أحقًا أن أحدًا من أهل بيتي أسلم وتابع محمدًا ﷺ على دينه؟

وعاد نعيم هادئًا وادعًا، يظلله إيمانه بالسكينة وبرد اليقين، فهو إذ يقول لعمر: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد -والله- غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم -ليفل من حده، ويكفكف من نزوته، ويصده عن غايته، وقد أفلح نعيم وكان ملهمًا، فنكص عمر على عقبيه، وارتد راجعًا إلى بيت ختنه وأخته- يقول له بلسان الحياة كلها: أأنت يا عمر، وكل مؤهلاتك في دنيا الناس، غرور مفتون، وسيف مثلوم، وتشطّر جاهلي، وتسكع في الأسواق تصارع وتتفتَّى، تستطيع أن تطفئ ضوء الشمس المشرقة في ضحوة النهار بنفخة من أنفك أو فيك؟

وأين تقع أنت وقومك عمومة وخئولة، وقريشك بملئها

وأبـي جهلها، والدنيا ومن فيها وما فيها من محمد رسـول الله ﷺ، وهو جالس في دار الإسلام، دار الأرقم مع قلة من أصحابه الذين اهتدوا بهديه وآمنوا بدعوته وصدقوا برسـالته، واتبعوه على دينه، يتدارسـون معه كلمة الله التي سيملكون بها الدنيا (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

واسـتخذى صلف الجاهلية في نفس عمر أمام موقف نعيم وقـوة إيمانه وشـجاعته، وارتـد عامدًا إلى بيـت أخته وختنه، ليكشف ما عُمِّي عليه، ويعرف حقيقة ما أنبئ به.

سعد بن أبي وقاص وموقف من عمر:

ولكـن نوازل الأحـداث لم تتركـه يمضي فـي طريقه، بل لاحقته بموقف قد يكون أقسـى عليه وأبلغ أثرًا في نفسـه من موقف نعيم، فروايات هذه القصة التي تلاحق عمر في مخرجه المجلـل بالظـلام، ليقترف أخطر جرائم الإفسـاد في الأرض، بمـا طُوي عليه صـدره تأثرًا بالإغراء الوحشـي الذي تفقّأ عنه الحقد الجاهلي الأسـود، لا تقف عند لقاء نعيم وحديثه معه، حديثًا سد عليه منافذ الرأي، وصده عما كان يريد أن يفعل من الإثم الذي وجهه إليه ملأ الفجور من أحلاس الشـرك المهين، وعبيد الوثنية المتبلدة.

ولكنهـا تحكي قصة لقـاء آخر مع شـخصية أخرى، كان حديثها أعنف وأمرّ، ووقعه أشـد وأقسـى على نفس عمر من

حديث نعيم، ولا يبعد أن يتعدد لقاء عمر بأكثر من شخص واحد من المؤمنين، لقاء متقارب الزمن، وهو في طريقه إلى عزمته الجارمة، فيجري ما يجري من حديث، ربما لا يدري صاحبه ما سبق حديثه من حديث وحَدَث، لعبت فيه المصادفة دورها المقدور، وربما كان هناك ترتيب لهذه اللقاءات من جانب المؤمنين الذين كانوا لا ينامون على غرة، يحذرون كيد المشركين وخبث مكرهم، ويعلمون ما يبيتون من أمر يريدون به الوقيعة بالمسلمين.

كل ذلك محتمل الوقوع، وقرائن القصة لا تقطع بنفي ولا إثبات في طريقة هذه اللقاءات التي تثبتها الروايات، ويظهر أن لقاء نعيم بعمر وما جرى بينهما من حديث، أدار رأس عمر، وهزّ كيانه- كان أسبق في لحظات الزمن من اللقاء الآخر الذي جرى فيه حديث أشبه في موضوعه وآثاره بحديث نعيم.

وكان عمر ساعة هذا اللقاء الثاني لا يزال في غمرة المفاجأة من لقاء نعيم وحديثه معه، مأخوذًا عن نفسه يترجَّح بين الشك الحائر، والظن المتربص، تدفعه اللهفة على تحقيق آماله في إغراء ملأ قريش، وجائزة أبي جهل، ويمسك به الأسف الممض على ضياع ثمرة هذا الإغراء

الخبيث من سـمعة جاهليـة داوية، وتأثُّلِ مـالٍ[19]، لم يكن يحلم به عمر في مرائيه وتخيلاته.

كان هذا اللقاء مع الأسد الخادر في عرينه، بطل بني زهرة، أخوال رسول الله ﷺ، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشعر سـعد بفطنته -أو بمـا ترامى إليه من أنباء ممشـى عمر- بما يـدور في نفس عمر من وراء تجهمه، واحتقان وجهه بالغضب الثائر، وفي عنقه سـيفه، وفي قلبه نار تتقد، وقد عُرفت شدته على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه، فيقول له سعد: أين تريد يـا عمر؟ فيقول عمر فى هوج عـارم من الغرور الجاهلي: أريد أن أقتـل محمـدًا! ويعاجله سـعد في شـجاعة وبـأس، وذرب لسان أحدّ من سيف عمر، ليطامن من غطرسته، ويكسر حدة غروره، وسـعد -إلـى جانب قوة إيمانه- خال رسـول الله ﷺ فيقول له: أنت أحقر وأصغر من ذلك!!

ولـم يشـأ سـعد أن يتسـامى بإسـلامه وقـوة إيمانـه فوق عقليـة عمر الجاهلية، التي كانت تقـوده إلى عزيمته الجارمة السـوداء، وكأن سعدًا اسـتحضر في نفسه وهو يرد على عمر أن هـذه المرحلـة التي تمر بها دعوة الإسـلام في استسـرارها وتَخَفِّيها ليست مرحلة إثارة، فأراد أن ينهنه غروره، فنزل إلى منحـدر تفكيره الجاهلـي المتعزز بالعصبيـات القبلية، فقال

(١٩) تأثل مالًا: اكتسبه وكثر ماله. (المجلة)

له : كيف تأمن بني هاشم -عمومة رسول الله ﷺ- وبني زهرة -خئولة رسول الله ﷺ ، وأسدهم الهصور سعد الذي يكلمه- وقد قتلت محمدًا ؟

وضاق عمر بهذه المجابهة ، فقال لسعد : ما أراك إلا قد صبأت ، وتركت دينك الذي أنت عليه ، فقال سعد في صراحة الأبطال : نعم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فاستهوج عمر وسل سيفه مرعدًا مزبدًا ، يظن أن سعدًا كأحد المستضعفين الذين يتخذهم الطغاة مظهرًا لجبروتهم ، وإذا به يرى سعدًا قد كشف عن سيفه ، سعد يهاجمه ليوغر صدره ، فيقول له : أفلا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه .

وسعد رضي الله عنه يعلم أن عمر وسيفه على عاتقه ، وهو يمضي لعزيمته المتهاوية لن يستطيع ولو كانت الدنيا بحذافيرها تحمل معه سيفه أن يوقف جري الأفلاك في مداراتها ، ولا أن يعوق الأقدار وهي تمضي في قضائها ، ولا أن يطاول النجوم في مواقعها ، ولا أن يحوّل مجرى أنهار الحياة ، وهي تصب نميرها في أودية الهداية وينابيع الإيمان نورًا وشفاء إلى مستنقعات الوثنية الوبيئة بأخطر أمراض الحياة وأسقامها .

ولكن سعدًا رضي الله عنه أراد أن يري عمر ومن وراءه من حثالات الفتات الإنساني المتعفن ، ممثلين في ملأ الفجور

والكفر، أنَّ أمر محمد ﷺ لا يطاول ولا ينال لأنه نبع السماء، يدخل على الناس بهدايته كل مدخل، ويلج إليهم كل متولج، تحمله إليهم نسائم الإيمان، فإذا استطعموه وجدوا في حلاوته أنفسهم الشاردة، تعود إليهم صافية مطهرة، فليذهب عمر بسيفه إلى أهل بيته ليجد عندهم ذكر محمد ﷺ، وذكر دعوته الرشيدة الراشدة، وذكر رسالته الخاتمة الخالدة، وذكر كتابه وما أنزل إليه من النور والهدى والحق، مسطورًا بدموعهم على صفحات من النور إيمانًا وهدى، ومعرفة بالله الواحد الأحد.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾

(طه: ١٤)

وعمر لا يعرف، كيف وأنَّى ومتى خلص هذا النور الهادئ الوديع إلى بيت أهله، فأحالهم إلى حقائقه الإيمانية رحمة وهدى؟ وذهب عمر من وجه محدثه سعد بن أبي وقاص وهو يتفصد غضبًا، مخمورًا بغروره الجاهلي، كأنما يطأ على جمر الغضا[٢٠]، ويمشي على شوك السعدان[٢١]، وهو لا يدري ماذا أريد به، أو ماذا أريد له في غيب المقادير.

---

(٢٠) يقصد بجمر الغضا النار التي لا تنطفئ؛ لأن خشب الغضا تبقى ناره زمانًا طويلًا. (المجلة)

(٢١) السعدان: شجر له شوك كثير. (المجلة)

سبحان الله اللطيف لما يشاء! هكذا في لحظة أشبه بنقطة نهاية الخط المستقيم تتحول النفس الإنسانية من النقيض إلى النقيض، وهكذا تتبدل الأفكار والعقول والقلوب والأرواح والخصائص والطبائع والترسبات الموروثة في لحظة ليس لها في حساب الزمن تقدير، من جاهلية شريرة، لا تعرف للخير معنى، ولا تتذوق له طعمًا، إلى أفكار وعقول، وأرواح، وقلوب، وخصائص، وطبائع، مهدية، هادية، راشدة مرشدة، صالحة مصلحة مؤمنة، مسلمة، خيِّرة بَرَّة، داعية إلى الله، عارفة بجلاله، عالمة بقهره وسلطانه، مستسلمة لأمره وحكمه، مصنوعة من عدله ورحمته.

بلى، كذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حياته بداية ونهاية، ومن هنا كان إسلام عمر رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ.

عفوًا، عفوًا، أبا حفص، فلتغفر للقلم صولته في تصوير حقيقة تاريخية كانت.

وهنيئًا، هنيئًا، فاروق الإسلام، وعبقري الدنيا، ثاني اثنين -بعد رسول الله ﷺ- في دنيا الإيمان والعدل والهدى والخير، والإصلاح القائم على الحق، وإقامة الحياة على منهاج رسالة محمد ﷺ في صورة حية متحركة مع الناس

والأشياء، كأنها هي في معانيها وحقائقها.

ولتسمح للقلم أن يسجد بين يديك متطامنًا لعظمتك التي أبدعك عليها الإسلام بقوة دفعه، ونشَّأك عليها محمد ﷺ في هديه، ودلِّه، وسمته، وخلقه، وعمله، فكنت المثل المضروب للسمو الإنساني المكسوب إلهامًا وعلمًا، وعملًا، وهديًا، ودلًا، وسمتًا، وخلقًا، وقوة في الحق، وعبقرية في الرأي والعدل.

الإيمان أقوى من عتو الجاهلية:

قال عمر يحدِّث عن تصرفه وما لقيه إذ وصل إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، فدخل عليها بوجه، وخرج عنها بوجه غير الوجه الذي دخل به: فجئت فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكان القوم جلوسًا -فيهم مقرئهم، خباب بن الأرت- يقرءون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا فقامت المرأة ففتحت لي، فدخلت عليها، فقلت لها: يا عدوة نفسها، قد بلغني عنك أنك صبوت ثم ضربتها، وجاء زوجها سعيد بن زيد فبطش عمر بلحيته وضرب به الأرض، وجلس على صدره، فجاءته أخته لتكفه عن زوجها، فلطمها لطمة شجٍّ بها وجهها حتى سال دمها، فبكت، بيد أنها استحالت قوة من الإيمان لا ترهب شيئا من صنوف البلاء والأذى، وقالت

لهـذا الباطش الجبـار: أتضربني يا عدو الله علـى أن أوحِّد الله؟ لقد أسـلمنا على رغم أنفك يا ابـن الخطاب فافعل ما كنت فاعلاً.

قال عمر: ودخلت وأنا مغضب، وجلست على السرير، ونظـرت فـإذا كتـاب فـي ناحيـة البيـت، فقلت: مـا هذا الكتـاب؟ أعطنيه، فقالـت: لا أعطيكه، لسـت من أهله، أنـت لا تغتسـل من الجنابـة ولا تتطهر، وهذا لا يمسـه إلا المطهرون.

في هذا الإطار كانت صورة عمر بن الخطاب في جاهليته، وهي صورة تمثل خصائصه العربية الجاهلية تمثيلاً لا يفوته خط من الخطوط الأصيلة في صورته التي كان يعيش بها في بيئته الخاصة بيـن قبيلته بني عدي في بيت أبيه الخطاب، يرعى عليه إبله، فيسـومه سـوء غلظته وقسوته، وفي بيئته العامـة بيـن بطون قريـش، ومجتمعات العرب في مواسـم أسواقهم ومحافلهم.

فهو في هذه الصورة فتى بني عدي، يرثها في خصائصها الاجتماعيـة ويمثلهـا بيـن فتيـان قريـش وشـبابهم فتوة وتشـطرًا، ومغالبة للأقـران، يصارعهـم فيصرعهم وينادم علـى الخمـر فـلا تفوته مجالسـها، ويسـارع إلـى مفاخر الجاهليـة ومفاتنهـا فيتجلببهـا ولو كانت مـن أرذل رذائل

الإنســانية، يطن في أذنه أن بعض غطاريف العرب[٢٢]، يئد البنات خيفة العار فيئدهن عمر مفاخرة وطموحًا للسـيادة الجاهلية.

يرى القسـوة والغلظة والجفوة في طباع قومه بني عدي تغطـي ما فاتهم من مفاخر قريش ومناصبها فيدَّرعها طبيعة وخلقًا، فينشـأ قاسـيًا، فظًا غليظ الطبع، شـديد الجفوة، يخافـه النـاس، ويرهبـه الضعفـاء اتقاء بطشـه، ويسـاور الأقوياء تعابثًا وتفتيًا، لا يُرَى إلا متجهما غضوبًا، لم تعرف الابتسامة وجهه.

ويـرث من خئولته بني مخـزوم عامة وآل المغيرة خاصة صلفهـم وغرورهم، ويتخذ مـن خبيثهم أبـي جهل مظهرًا لخئولتهـم له، وفـي آل المغيرة غير أبي جهل فتية سـادة، وأبطـال قـادة، عرفـت لهـم قريـش مكانتهم بيـن فتيتها وشبابها، ووسدت إليهم بعض أمرها، فلم يتخذ عمر منهم مظهرًا لخئولتهم له، ينتسب إليهم، كما اتخذ من أبي جهل مظهرًا لهذه الخئولة، لأن الآخرين لم يكونوا في صلف أبي جهل، وتفكك طبيعته، وبأوه، واستكباره وتعاليه تصنعًا، يتظاهر بالصنيعة، يبتغي من ورائها السمعة والقالة، تطلعًا إلى زعامة بين ملأ قريش، يشاركهم أحاديثهم وأسمارهم في

(٢٢) الغطاريف: جمع غِطريف وهو السيد الشريف. (المجلة)

مجالسهم وأنديتهم حول البيت حتى أدخلوه في مشوراتهم وسائر ما ينوبهم من أحداث.

فأراد عمر أن يضاهئه ويجري على شوطه؛ لأنه وجد في طباعه وخصائصه ما يرضي طموحه الجاهلي ويعوضه عما فات قومه بني عدي من المكانة المرموقة في قريش ومناصبها الجاهلية.

وجاء الإسلام فكان المخزوميون -لا سيما آل المغيرة منهم- ألد أعدائه، يبغونه الغوائل ويتربصون به الدوائر، وكانوا أشد قريش إيذاء لرسول الله ﷺ وأصحابه، وكان أخبثهم لددًا وحقدًا أبا جهل؛ لأن الإسلام جدع أنف كبريائه، وبخع طموحه، وقضى على منافسة قومه في المكارم لبني عبد مناف عامة، وبني هاشم خاصة، وقال كلمته المعبرة عن حقده على الإسلام ورسوله محمد ﷺ، وهو يحاور الأخنس بن شريق، بعد أن استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، حتى إذا تحاذينا بالركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه.

ومن هذه الوراثة، وهذه المضاهأة كان عمر بن الخطاب في طليعة المباعدين للإسلام وكان من أشد الناس أذًى

لرسول الله ﷺ، وأقساهم على أصحابه، فإذا نهض الخبيث أبو جهل ليصب جام حقده على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه بكل ما يملك من وسائل الإيذاء، فلينهض عمر ابن اخته مضاهئًا لخاله، فيصب جام قسوته على المسلمين.

ويسمع عمر ملأ قريش، وفيهم خاله أبو جهل يقولون في ناديهم: من لمحمد يقتله؟ فيهتبلها عمر فرصة يكتسب بها مقعدًا من مقاعد الزعامة الجاهلية، فيقول: أنا له، ويهش الأخابث لهذا الغرور الأبله فيقولون له ليضاعفوا من غروره: نعم، أنت له يا عمر، ويزيد خاله أبو جهل إغراء وتغريرًا، فيقول: ومائة ناقة حمراء، وألف أوقية فضة.

ويتوشح عمر سيفه، ويخرج يمشي لعزيمته السوداء، يلقاه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، ثم سعد بن أبي وقاص الزهري، فيسخران منه سخرية كانت نقطة تحول في حياته؛ لأنها أصابت مقاتل غروره؛ إذ أخبراه بأن الإسلام ومتابعة محمد ﷺ قد دخل عليه بيته، وهو غافل لا يدري، ويعدل عمر إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ويدخل متوعدًا، مهددًا، يرغي ويزبد، يصب البقية الباقية في إهابه الجاهلي من مخلفات ميراثه من الخطاب ومضاهاته لخاله أبي جهل قسوة وغلظة على أخته الضعيفة، فيلطمها لطمة شج بها وجهها فأدماه، وعلى زوجها ابن عمه سعيد

بـن زيد، فيبطش بـه، ويجلس على صدره، وتـدرك المرأةَ وزوجَهـا صولةُ الإيمـان، وتملأ قلبيهما حـلاوة الفداء في سـبيل عقيدتهما، فيقولان لعمر: وهو في قسوته وتجهمه وجبريته: لقد أسـلمنا على رغم أنفسـك يا ابن الخطاب، فاصنع ما أنت صانع.

تضاؤل العتو الجاهلي أمام قوة الإيمان:

وهنا يتضاءل غرور عمر وبطشـه، مسـتخذيًا مخذولًا، ويفر عنه شيطانه، ويبقى عمر الإنسان وحده مجردًا إلا من عقلـه الأصيل، وقلبه العقول، وفطرتـه المطهرة، ويجلس عمـر وقـد ذهبت عنـه خنزوانية الغضـب(٢٣)، ويبصر في جلسـته كتابًا أو صحيفة فـي ناحية من البيت، ويطلب إلى أخته أن تعطيه الكتاب أو الصحيفة فتأبى عليه، وتقول له: لا أعطيكهـا، وهنا تقع المعجزة بـكل خصائصها العقلية والروحيـة والمادية، إذ يقول عمر لأخته: ويحك! وقع في قلبي مما قلت، فأعطنيها أنظر إليها، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تحوذيها حيث شئت.

لقد تبـدل الموقف، فخنع الجبار، واستبسـل الإيمان، فـي إهـاب امـرأة ضعيفة، كانـت إلـى لحظة تبكـي؛ لأن

(٢٣) يقال رجل ذو خنزوان إذا كان متكبرًا. (المجلة)

أخاها الذي دخل عليها متسربلًا غلظة الجاهلية، نفحها نفحة دمَّى بها وجهها، وليس لها ذنب إلا أنها وحدت الله تعالى وتركت عبادة الأصنام، وقالت فاطمة لأخيها وهو يتضرع إليها أن تعطيه الصحيفة: إنك رجس، لا تغتسل من الجنابة، فانطلق واغتسل وتطهَّر، فإنه كتاب لا يمسه إلا المطهرون، وخرج عمر طائعًا ليغتسل؛ لأن الإيمان وقع في قلبه، ويخرج خباب بن الأرت من مخبئه، ويقول منكرًا على تلميذته: أتدفعين كتاب الله إلى كافر؟ فترد التلميذة المتفقهة المتشرعة على معلمها ومقرئها: نعم، إني أرجو أن يهدي الله أخي، ألم يقل عمر لأخته: قد وقع في قلبي مما قلت، فما الذي وقع في قلبه مما قالت؟ إنه الإيمان، ولكن خبابًا رضي الله عنه لم يسمع هذا من عمر، فأنكر على تلميذته أن تعرض كتاب الله للوقوع في يد كافر، ولكن تلميذته فاطمة بنت الخطاب رأت -ومن حقها أن ترى في فقه الإيمان والدين، والدعوة إلى الله، وهي ترجو أن يهدي الله أخاها إلى الإيمان وقد سمعت منه ما أطمعها في إيمانه- أن تعطيه الصحيفة ليقرأ ما فيها من آيات القرآن.

وعمر -على ما كان عليه في جاهليته- لمَّاح العقل، عبقرى المدارك، أحوذي الفكر[٢٤]، ألمعي الرأي، لا

(٢٤) يقولون: رجل أحوذي أي: نسيج وحده. (المجلة)

تعـزب عنه هداية القرآن، إذا قرعت آياته قلبه، ويعود عمر بعـد تطهره واغتسـاله، وتعطيه أخته الصحيفـة، ويقرأ ما فيها -وكان عمر قارئًا كاتبًا- فإذا في الصحيفة: «بسـم الله الرحمن الرحيم» يقول عمر: فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رجعتْ إليَّ نفسـي، وأخذت الصحيفة، فإذا فيها -كما تقول هذه الرواية-:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(الحديد: ١)

فكلما مررت باسم من أسـماء الله تعالى ذعرت، وجعل عمر يستعيد إليه نفسه ويقرأ:

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
(٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣)
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَّهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) ءَامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

(الحديد: ٢ - ٨)

هكذا جاءت هذه الآيات من أول سورة الحديد في قصة إسلام عمر من رواية أسلم مولى عمر في مواهب القسطلاني وشارحها الزرقاني الذي أسند شيئًا منها إلى البزَّار، نقلًا من روض السهيلي.

وفي رواية ابن عساكر، وأبي نعيم عن ابن عباس، عن عمر، وفي رواية الدارقطني عن أنس عن عمر، أنه قال لأخته ومن معها: أرني هذا الكتاب، فقالت:

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾

(الواقعة: ٧٩)

فقمت فاغتسلت، فأخرجوا لي صحيفة، فيها:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن
يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَـٰنُ
عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

(طه: ١ - ٨)

فعظُمَت في نفسي، وقلت: من هذا فرَّت قريش، فأسلمت.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي الصفوة: فلما بلغ -أي عمر- قوله تعالى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه: ١٤)

قال: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يُعبَد معه غيرُه.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلدًا سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة -هو سعد بن أبي وقاص كما حكاه الزرقاني عن الصفوة، ووفق بينه وبين لقاء نعيم، فقال: ويحتمل أن يكون لقياه معًا، فبلَّغاه إسلام أخته وختنه -قال الزهري: أي سعد بن أبي وقاص: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا، قال سعد: وكيف تأمن في بني هاشم، وبني زهرة، وقد قتلت محمدًا؟ فقال عمر: ما أراك إلا صبوت، وتركت دينك الذي أنت عليه، قال سعد: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر ذامرًا حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين، يقال له: خباب، فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، فدخل عمر على أخته وختنه، فقال: ما

هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ وكانوا يقرءون سورة (طه) فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال عمر: فلعلكما قد صبوتما، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئًا شديدًا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها بيده نفحة فدمَّى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه -وكان عمر يقرأ الكتب- فقالت له أخته: إنك رجس

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾

(الواقعة: ٧٩)

فقم واغتسل أو توضأ، فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأه حتى انتهى إلى قوله:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾

(طه: ١٤)

فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب بن الأرت قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس، ثم قال خباب: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا،

فانطلق عمر حتى أتى الدار، وخرج إليه رسول الله ﷺ، وأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: «اللهم هذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب» فقال عمر: أشهد أنك رسول الله.

هذه هي قصة إسلام عمر بن الخطاب في خطوطها الأصيلة بداية ونهاية، في إجمال لا يغض من معالمها، فهي قصة تُصَوِّر خصائص عمر في جاهليته، وتصور مباعدته للإسلام، إذ جاء هذا الدين هاديًا للحياة، ونورًا للعقول، وضياء للقلوب، وإشراقًا للأرواح، ونظامًا عادلًا، وأدبًا حكيمًا، وهي قصة تصور عمل الإيمان في داخل ضمير عمر، وهو يحاور أخته فاطمة بنت الخطاب في إسلامها، منكرًا أن تكون قد أسلمت، وتابعت محمدًا ﷺ، فتجبهه بإيمانها، فيقسو عليها، وينفحها نفحة تُدمي وجهها، وتثور عوامل الإيمان في نفس هذه المرأة المؤمنة الضعيفة، فلا تملك إلا أن تفقأ عين كبرياء الجاهلية في وجه هذا المتجبر، فتقول: لقد أسلمنا رغم أنفك يا ابن الخطاب.

عمل الإيمان في داخل ضمير عمر:

وهنا تنهار جاهلية عمر بكل ما فيها من عنجهية عاتية أمام قوة الإيمان وقهره، وينقلب الجبار العتيّ إنسانًا هادئًا

وديعًا، يتضرع إلى أخته المؤمنة الصادقة ويعطيها ما تحب من المواثيق على أنها إذا أعطته صحيفتها التي كانت تقرؤها لَيَرُدَّنَّها إليها محفوظة حيث شاءت، وتنتهز أخته هذه الفرصة التي تعترك فيها الأزمات النفسية والعقلية في نفس عمر، فتلقي عليه درسًا (جانبيًا) يصور حلاوة الإسلام وجماله وسموه، ونقاء ظاهره، كصفاء باطنه، وتطلب إليه أن يعد نفسه حتى يكون أهلًا لمسّ هذه الصحيفة التي كتبت فيها آيات من القرآن العظيم، الذي أنزل على محمد ﷺ هدى ورحمة للعالمين، فليتطهَّر ليمسك بالصحيفة ويقرأ ما فيها، فيستجيب الرجل الرهيب في استسلام ورضا إلى طلب أخته في صدق إيمانها، بسمو هذا القرآن العظيم الذي لا يمسه إلا المطهرون.

ويذهب عمر، ويتطهر، ويعود إلى أخته بوجه تملأه الابتسامة المشرقة، فتعطيه الصحيفة وهي مغتبطة فرحة، وينظر عمر فيها ويقرأ:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾

(طه: ١، ٢)

في آيات تمجِّد الله وتقدسه، فيهتز كيان عمر هزة تتزلزل منها أركانه، وتتبدل نفسيته، ويستحيل عقله الجاهلي إلى قوة روحانية، تتعمق الحقائق وتستطعم المعاني، وتتذوق

آثارها ، فيقول : من هذا فرَّت قريش ، ويمضي عمر قارئًا حتى يبلغ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾

(طه : ١٤)

فيرتفع بروحه إلى آفاق علوية ينفسح فيها مجال الفكر انفساحًا رحيبًا يملأ قلبه سكينة وإيقانًا يقوده إلى المعرفة فيؤمن إيمانًا عليمًا ، ويقول : ما ينبغي لمن يقول هذا أن يُعبَد معه غيرُه .

فماذا بقي من حقيقة الإيمان وروافده لم يتولج إلى قلب عمر ؟ ويسرع عمر عندئذ مستخبرًا عن مكان النبي ﷺ ويذهب إليه جاثيًا بين يديه مؤمنًا مسلمًا بعزيمة عرفت الحق فاعتنقته ، ونفس ذاقت حلاوة الإيمان فاعتزت به وأعزته ، وصدق الله تعالى دعوةَ نبيه ﷺ ، أن يعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب ، فأعزه به وأيده .

قريش تفاجأ بإسلام عمر فتُكبَت وتذل:

ويسأل عمر رسول الله ﷺ أن يخرج في أصحابه على ملأ الكفر ليعلن للدنيا رسالته ، ويجهر بدعوته ، ويحاوره رسول الله ﷺ ليمتحن عزائم أصحابه ، ويتعرف قوة يقينهم ، ويزيدهم إيمانًا على إيمانهم فيقول ﷺ لعمر : « إنا قليل قد رأيت ما لقينا » .

البداية والنهاية

فكانت هـذه الكلمة النبوية قوة انبعـاث في أنفس جند الله، فحفوا برسـول الله ﷺ في صفين، يتقدم أحدهما عمه حمزة أسـد الله، وأسد رسـوله، ويتقدم الآخر غيظ قريش، وشـجا حلاقيمهـا عمـر بـن الخطـاب، وهم يكبـرون الله بصـوت واحد، هزَّ أرض مكة، وتردد صداه في آفاقها ويرن رجعه من ذرى جبالها، وتمتلئ بنبراته وِدْيَانُها.

ويدلفـون في جمعهم العظيم إلى المسـجد[٢٥]، وملأ قريـش في أنديتهـم ومجالسـهم يهجرون، فلمـا نظروا إليهم أخذهـم المقيم المقعـد وكبتوا، وذلـوا، ووجموا مبلسـين، وارتعـدت فرائصهـم وتزايلـت عـن أماكنهـا مفاصلهـم، واضطربـت قلوبهـم واجفـة بيـن أضلعهم، وجعلوا يسـتثبتون وجودهم، وأنهم أحياء يقظة، فأخذوا يمسـحون رمص أعينهـم؛ ليتحققوا مـن حقيقة ما يرون ويشـهدون، وكأنهم كانوا في سُـبات عميق، أو سكارى بغير رحيق.

ينظرون لا يصدقون، ويحاولون مع أنفسـهم أن يعرفوا: كيف، ومتى، ولماذا، استحال فتى قريش ابن الخطاب في لحظة إلى حريق مشـبوب يشـوي أكبادهم، وهو الذي كان

---

(٢٥) يقولون: دلف الشيخ إذا مشى وقارب الخطو. (المجلة)

منذ لحظة عنوان جبروتها وعتوها على محمد ﷺ ودعوته، وسوط قسوتها على أصحابه.

وَيْ! أليس هذا الذي يقف إلى يمين محمد ﷺ خفيض الجفن، لا يملأ عينه من النظر إليه حياء وحبًا متقدمًا أحد صفي المسلمين، متهللا زجلا بالتكبير والتوحيد هو عمر بن الخطاب الذي خرج من عندهم منذ لحظة متوشحًا سفيه ليفعل به الأفاعيل؟ فما عدا بما بدا؟

أجل، إنه عمر بن الخطاب بعينه، وفصه، جاء مع محمد ﷺ مؤمنًا به، مصدقًا لدعوته، حاميًا لجنده، يكيد قريشًا وينغل جراحه(٢٦)، بعد أن كان أملها المرجَّى في مناهضة رسالة محمد ﷺ، وسيفها المُصْلَت فوق رقاب أصحابه.

وها هو ذا عمر بن الخطاب يصبح في لحظة بين أتباع محمد ﷺ رجل الإسلام، وبطل الدعوة الجديدة التي ستقوض بنيان الجاهلية، وتقضي قضاء مبرمًا على الوثنية في شتى أشكالها، وتزيل الشرك على اختلاف ألوانه، وتهدم دعائم المجد المادي الزائف، وتبخع الطغيان الظلوم، وتبني الحياة من جديد على أسس من العدل والحق والمساواة بنيانًا يجعل من الإنسانية كلها

(٢٦) نَغَل الجُرح ينغل: فسد. (المجلة)

في إخائها وتعاطفها وتوادها وتعاونها على البر والتقوى جسدًا واحدًا، تتقمصه روح واحدة، هي روح البر والرحمة.

كذلك صار عمر بن الخطاب في الإسلام كله، الرجل الثاني في جميع أصحاب رسول الله ﷺ، تحقيقًا لقوله ﷺ شهادةً بفضله وفضل الصديق أبي بكر -رضي الله عنهما- فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس عن عليّ -رضي الله عنهما- قال: وعمر على سريره بعد موته: والله ما خلفتُ أحدًا أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر».

وفي حديث البقرة المتكلمة: فعجب الناس وفزعوا، وقالوا: أبقرة تَكَلَّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر» وما هما ثم، خرجه مسلم أيضًا.

فإذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الرجل الأول في إعادة رسن الإسلام إلى غربه[٢٧]، وفي توطيد

---

(٢٧) الرسن: الحبل. والغَرَب: الدلو الكبير. والمراد بإعادة رسن الشيء إلى غَرَبه صيانته عن الفساد الذي أوشك أن يصيبه.

أركان الدعوة بعد أن تزلزلت الحياة الإسلامية بوفاة رسول الله ﷺ، وبما أعقب ذلك من تفكك عروة المجتمع الإسلامي وانفراط عصامه، بموقفه يومئذ من الخلافة والردة، موقفًا انفرد به في تاريخ الدنيا، حزمًا، وعزمًا، وقوة تدبير، وشجاعة قلب، واستقامة رأي، وعلو حجة، وسرعة حركة في التوجيه، وإحكام ضربات حاسمة، ردت العقول الثائرة إلى مرابضها، والعقول الفاترة إلى ثورتها، وسلطان الإسلام إلى أفقه، ووحدة المسلمين إلى منهجها في السير برسالة محمد ﷺ إلى غايتها وأهدافها في فتح القلوب وإيقاظ العقول.

فإن عمر بن الخطاب كان هو الرجل الأول في إقامة دعائم دولة الإسلام نظامًا اجتماعيًا وحكمًا لم تعرف الدنيا له مثلًا في العدل، وإقامة الحق، واستقامة السلوك، وتطبيق أحكام الإسلام، على الأفراد مهما كان شأنهم، وعلى الجماعات مهما عظم خطرها، وفي تحقيق الأسوة المرئية للناس بأبصارهم في نفسه وولده وسائر أهل بيته وقرابته أولًا، وعامة المسلمين ثانيًا في سواء من أمرهم، لا يتميز منهم أحد على أحد في أخذ الحق منه أو إعطائه له.

وعمر بن الخطاب أصبح بإسلامه عبقري الدنيا بشهادة رسـول الله ﷺ فيمـا رواه البخـاري من قولـه ﷺ: «فلم أر عبقريًا يفري فريَّه»(٢٨).

فأي شـيء يكـون الإعجاز فـي صنع النفـوس، وخلقها خلقًا جديدًا، وإبداعها إبداعًا سويًا تتسامى به في تفكيرها وعملهـا وقوة إيمانها، إذا لـم يكن هذا الذي كان لعمر بن الخطاب بإسلامه إعجازًا؟

فـإذا قلنـا: إن إسـلام عمر بـن الخطـاب كان نفحة من نفحات الإعجاز في صنع النفوس الإنسانية في رسالة محمد ﷺ لم نكن نقصد إلى شيء من أساليب المجاز والرمز، ولا إلى شيء من المبالغة التعبيرية، ونصاعة البيان، في تصوير ما صـار إليه عمـر بن الخطاب بإسـلامه بعـد جاهليته من عظمة شـخصية، وعبقرية فكرية، وألمعية عملية، لنضفي علـى هذا الحدث الخطير في تاريخ الحياة من الألوان ضربًا مـن الخيال الفضفـاض، ولكنا قصدنا إلـى حقيقة الإعجاز الإنسـاني الذي تميزت بـه هذه الرسـالة الخالدة في صنع النفـوس وتربية الرجـال في مدارس آياتهـا ومعاهد آدابها، وهـي بطبيعتهـا الإنسـانية ومصدرها الإلهي فـي غُنية عن التحدي بالمعجزات المادية التي تُكرِه العقول على الإيمان

(٢٨) يقال للرجل الشجاع: ما يفري أحد فريه، خفيفة، ومن ثقَّل فقد غلط (العين).

بها ؛ لأنها رسالة الإِنسان جاءته لتكشف له الحجب عن حقيقته حتى يعرف نفسه ومكانه في الحياة، فهي رسالة تخاطب العقل والروح والقلب، وتحرك الوجدان، وتثير العواطف والشعور والإِحساس.

هي رسالة الإِنسان ليعرف الكون كله، أنزلت لتطلب إلى العقل الإِنساني في إغراء واعد، وتطلب إلى كل مُدْرِك شعوريٍّ في الإِنسان أن يعمل بكل ما أوتي من وسائل وقوة علم ومعرفة ونظر وتفكير، وتجارب عملية، على استكشاف عناصر الكون الطبيعية، وأسراره الروحية، إظهارًا لآيات الله في كل ذرة من ذرات الحياة فيه ليهتدي بها الإِنسان إلى:

أولًا: معرفة خالق هذا الكون، ومدبِّر نظامه، معرفة برهانية، لا تعتمد على منطق فرضي، يؤمن بأمور يتوهمها حقائق، وهي أوهام وأباطيل، ولكنها تعتمد على منطق الحق الذي تتضافر على الإِيمان به قوى الإِدراك في الإِنسان، فيخالط بردُ يقينها جذوةَ الإِدراك العقلي في أوج ذروته.

ثانيًا: معرفة مكانه من الحياة في هذا الكون العريض العميق، معرفة تقوده إلى أن يقرأ كتاب الكون، مستغرقًا في التأمل، ليتبين آيات الله تعالى في خلقه، وتدبيره، ليُخلِصَ الإِنسانُ التعبُّدَ لله وحده.

ثالثًا : معرفة طرائق الإفادة من عناصر الطبيعة في هذا الكون ، ووضعها موضع العمل التجريبي ، بجميع ما يكون في استطاعته من أسباب توصله إلى الحصول على أكبر قسط من هذه الإفادة .

مظاهر الإعجاز في إسلام عمر:

والإعجاز الذي قصدناه في إسلام عمر هو الإعجاز الذي يحيي القلوب بعد موتها ، فيبعثها من مرقدها حية مؤمنة بعد كفر ، عالمة بعد جهالة ، مهتدية بعد ضلالة ، عاملة ناهضة ، وكذلك كان إسلام عمر ، أحيا قلبه بعد موته ، في جاهليته ، فبعثه من مرقده في حمأة الوثنية ، مؤمنًا بالله وحده ، عالمًا بجلاله ، مهتديًا بهديه ، عاملًا نهَّاضًا في سبيل عقيدته .

وهو الإعجاز الذي يوقظ العقول الغطيطة في مهاد الضلال ، لتدرك حقيقة الحياة على ضوء ما يسوق لها الإيمان بالله تعالى من إشراق ينير لها طريق السير في دروب الحياة ، وكذلك صنع إسلام عمر بعقل عمر ، فأيقظه من غفلته ، وأراه الحياة كما يراها الإسلام في هديه ورسالته .

وهو الإعجاز الذي يحيل في لحظة من لحظات الزمن النفوس الجاحدة العاتية إلى نفوس مؤمنة وادعة تأخذ من الحياة لتعطي ، وتعطي لتفيد ، وتتحرك لتعلم ، وتعلم لتعمل ، وكذلك صنع إسلام عمر بنفس عمر ، فقد أحالها

من جحود عات، وعتو جاحد إلى نفس مشرقة الإيمان، عظيمة الإخلاص، أعطت أكثر مما أخذت وأفادت أكثر مما استفادت، وتحركت فعَلِمَت وعلَّمت، فكانت في الإسلام أسوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكانت مفخرة المفاخر في تربية الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يبدل في لحظة من لحظات الزمن القسوة الباغية في النفوس الطاغية رحمة حانية ورقة عاطفة، وكذلك صنع إسلام عمر بشخصية عمر، فقد بدَّل قسوته وبغيه على أهل الحق والإيمان من المسلمين المستضعفين، رحمة ورأفة وإشفاقًا، وفي تاريخ عمر الإسلامي من الشواهد على ذلك ما لا يحصى عدًا، وما لا يعرف لغيره من الرجال الذين أوتوا من السلطان والحكم ما أوتي عمر في الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يجعل من الصلف المغرور، والغرور المفتون عزة وكرامة، وكذلك صنع إسلام عمر في طبيعة عمر، فجعل منه أعز رجل في أمة الإسلام وأكرمه، وجعل منه مربيًا لهذه الأمة، يسوسها بالعزة والكرامة، ويربيها على الأنفة وإباء الضيم، يكره الخنوع، والذلّ، ويحب أن يرى فيها الشموخ والعزة.

وهو الإعجاز الذي يجعل من إنسان وُلد ونَهد، وشب في

جاهلية حمقاء، وبيئة شـريرة عميـاء وحياة ضالة جهلاء، إمامًا للإِنسـانية، يهتدي لها، ويهديها، ويقودها إلى أكمل مراتـب الكمال فـي حياتهـا، وينهض بهـا إذْ يوسِّـد إليه أمرها إلـى أرقى درجات التحضر الكريم، يسوسـها بعدله وحكمته، ويأسـو جراحهـا برحمته، ويحمـل عنها عبء مسـئوليتها بأرفع وأجـلّ ما حمل عبقريٌّ مسـئوليةَ أمةٍ في حياتها.

وأخيـرًا هـو الإعجاز الـذي جعل مـن أمة الإِسـلام، أمة محمـد ﷺ أمـة محسـودة؛ لأن العناية الإِلهيـة وهبت لها عمر بن الخطاب، ثاني الراشـدين، ليقودها وهي في مطلع حياتها، تتحسس مواضع أقدامها، فكانت بعدله وسياسته وحكمته وقيادته خير أمة أخرجت للحياة في جميع مظاهر الإِصلاح.

بهـذا كلـه وأعظم منـه قـدرًا، وأكثر عدًا جاءت رسـالة محمـد ﷺ، فكانـت خاتمة الرسـالات السـماوية، بهذا كلـه، وأرفع منـه وزنًا، وأجلّ منه مرتبـة، وأفضل معنى في مراتـب الفكر والنظر، وفـي مجالات أنظمـة الحياة أُنزل كتابهـا القـرآن العظيم على رسـولها محمد خاتـم النبيين ﷺ، فـكان معجزتهـا الخالـدة، وآياتهـا البينـة، بمعانيه الإِنسانية، وتشريعاته التعبدية، وسماحته العَقَدِيَّة، ونظمه

الاجتماعيــة، وهدايتــه التربويــة، وآدابــه الخُلقيــة وروعة أساليبه البيانية، وبراعة تحليله للنفوس البشرية، وكشف دخائلها، وشفائها من أسقامها.

لقد جمع الله تعالى لعمر بن الخطاب كل هذه الحقائق والمعانــي، وصــوَّر له كمالاتها في لحظة مــن الزمن انفجر منهــا في داخــل بصيرته نــور أضاء له ملكوت الســماوات والأرض، فقــرأ مــن كتاب الكون أصــول هدايته، ممثلة في الآيــات الثمانــي من أول ســورة (طــه) التــي كانت تضيء صحيفة أخته التي قرأها عندها، وكانت كل آية منها صورة لجانب من جوانــب ملكوت الله تعالى، ورآها عمر في مرآة بصيرته، فآمن برسالة محمد ﷺ، واتبع هداه، وأسلم قلبه ووجهه لله رب العالمين.

الفهرس